الفصل الثامن والعشرون

المسرحية السياسية

١٧٥٦ — ٩٢

---

١ — البنية السياسية

كانت الثورة الصناعية أهم عملية أساسية فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر فى انجلترا ، والصراع السياسى أكثر الدرامات اثارة فيها . فقد جعل عمالقة الخطابة الانجليزية — شاتام ، وبيرك ، وفوكس ، وشريدان — هؤلاء جعلوا مجلس العموم مسرحاً لصراعات مريرة خطيرة بين البرلمان والملك ، وبين البرلمان والشعب ، وبين انجلتره وأمريكا ، وبين ضمير انجلتره وحكام الهند الانجليز ، وبين انجلتره والثورة الفرنسية . وكان البناء السياسى اطار المسرحية وأداتها .

كانت حكومة بريطانيا العظمى ملكية دستورية ، بمعنى أن الملك كان يوافق ضمناً على أن يحكم وفق القوانين الراهنة والممارسات التقليدية ، وألا يضع قوانين جديدة دون موافقة البرلمان . أما الدستور فلم يكن وثيقة بل تراكماً للسوابق باستثنائين ، أولهما المجناكارتا الذى وقعه الملك يوحنا فى ١٢١٥ ، والثانى نشأ حين أرفق مؤتمر وستمنستر فى ١٦٨٩ (الذى عرض تاج انجلتره على وليم أورنج وزوجته مارى) بهذا العرض « قانونا يعلن حقوق وحريات الرعية ويسوى مسألة وراثة التاج » وقد أكد « قانون الحقوق » هذا كما سمى اختصاراً ، أن « سلطة وقف القوانين أو تنفيذالقوانين بأمر ملكى دون موافقة البرلمان غير قانونيه » وأن « جباية المال للتاج أو لاستعمالهبدعوى الحق الملكى الخاص ، دون إذن البرلمان . . . عمل غير قانونى» ثم أردف : « ونظراً إلى الثقة الكاملة بأن . . . أمير أورنج سوف

يحميهم (أى البرلمان) من انتهاك حقوقهم التى أكدوها هنا ، ومن أى اعتداءات أخرى على دينهم وحقوقهم وحرياتهم ، فإن . . اللوردات الروحيين والزمنيين ونواب العموم . . يقررون أن يكون وليم ومارى ، أمير وأميرة أورنج . وأن ينادى بهما ملكاً وملكة على انجلتره وفرنسا وارلندة . » ومعنى هذا إن وليم الثالث ومارى الثانية بقبولهما العرش قبلا ضمنا القيود التى وضعتها أرستقراطية انجلتره المزهوة القوية على سلطة الملك بهذا التصريح. وحين عرض البرلمان فى « قانون تسوية » لاحق (١٧٠١) ، وبشروط معينة ، التاج على « الأميرة صوفيا » (الهانوفرية) وورثتها البروتستنت « افترض أنها هى وهؤلاء الورثة وافقوا بقبولهم العرش على « قانون للحقوق » سلبهم كل الحق فى وضع القوانين إلا بموافقة البرلمان . وبينما كانت جميع دول أوربا تقريباً حتى ١٧٨٩ يحكمها ملوك مستبدون يضعون القوانين ويلغونها ، كان لانجلتره حكومة دستورية امتدحها الفلاسفة وحسدها نصف العالم .

وقد قدر تعداد ١٨٠١[1] سكان بريطانيا العظمى بتسعة ملايين نسمة ينقسمون إلى الفئات التالية :

١ — فى القمة ٢٨٧ نبيلا ونبيلة زمنيين (علمانيين) بوصفهم رؤساء أسر مجموعها نحو ٧,١٧٥ شخصاً . وكان داخل هذه الفئة مراتب فى ترتيب تنازلى : أمراء الدم (الملكى) ، وأدواق ، وماركيزات ، وايرلات ، وفيكونتات ، وبارونات . وانحدرت هذه الألقاب إلى الإبن الأكبر جيلا بعد جيل .

٢ — ستة وعشرون أسقفاً — « لوردات روحيون » وكان من حقهم هم واللوردات الزمنيون الـ ٢٨٧ أن يجلسوا فى مجلس اللوردات . وقد ألف هؤلاء معاً — وجملتهم ٣١٣ أسرة — طبقة النبلاء الأصليين ، ويصح استعمال لقب « اورد » لهم جميعاً إلا الأدواق والأمراء . وكان من الممكن اكتساب نبالة دون ذلك رسمية ، ودون حق توريثها ، بفضل التعيين فى الوظائف العليا فى الحكومة أو الجيش أو البحرية ؛ ولكن كان المتبع عادة أن يعين فى هذه الوظائف أشخاص رفعوا إلى مقام النبالة من قبل .

٣ — نحو ٥٤٠ بارونتا ، وزوجاتهم ، يحق لهم أن يضعوا لقب « سير » و« ليدى » فى صدر أسمائهم الأولى ، وأن يورثوا هذين اللقبين .

٤ — نحو ٣٥٠ فارساً وزوجاتهم يحق لهم استعمال اللقبين السابقين ، دون توريثهما .

٥ — نحو ستة آلاف « سكوايز » Squires (e) وهم الـ « gentry » أو الطبقة الكبرى من ملاك الأرض الرئيسيين . وكان البارونيتات ، والفرسان ، وهؤلاء الملاك ، وزوجاتهم ، يؤلفون « الطبقة الدنيا من النبلاء » ويندرجون بوجه عام هم وكبارهم فى الطبقة « الارستقراطية » .

٦ — نحو عشرين ألف « سيد » (جنتلمان « أو سيدة » (ليدى) يعيشون على دخول دون عمل يدوى ، لهم شعارات نبالة ، ومفروض أنهم من أصل كريم « gentle » — أى ولدوا فى مجموعة الأسر العريقة المقبولة « gens » .

٧ — وأسفل هؤلاء جميعاً جاءت بقية السكان ، الأكليروس الأدنى ، وموظفوا الدولة ، ورجال الأعمال ، والمزارعون ، وأصحاب المتاجر ، ومهرة الصناع ، والعمال ، والجنود ، والبحارة ، كذلك نحو ١٠٤,٠٠٠ من المعدمين الذين يتلقون المعونة من الدولة ونحو ٢٢٢,٠٠٠ من « المتشردين ، والغجر ، والأشرار ، واللصوص ، والمحتالين ، ومزيفى العملة البخسة ، داخل السجون أو خارجها ، وعامة البغايا »[٢] .

وقد هيمنت الطبقة الأرستقراطية على الحكومة ، دون أن تلقى من المقاومة إلا العارضة بفضل ثرائها (وقد أصاب النبلاء الـ ٢٨٧ تسعة وعشرين فى المائة من الدخل القومى فى ١٨٠١)[٣] ، وبروزها فى الوظائف العليا مدنية أو حربية ، وهيبة عراقتها ، وهيمنتها على الانتخابات البرلمانية والتشريع ، وكانت انجلتره من ناحية النظام الانتخابى مقسمة إلى أربعين اقليماً أو مقاطعة ريفية (Counties) و ٢٠٣ مدينة ذات ممثلين (boroughs) . وكان يستثنى من حق التصويت النساء ، والمعدمون ، والمجرمون المحكوم عليهم ، والكاثوليك الرومان ، والكويكرز ، واليهود ، واللاأدريون ، وغيرهم ممن

لايستطيعون حلف يمين الولاء لسلطان الكنيسة الانجليزية وعقائدها . ولم يكن حق التصويت للبرلمان مخولا فى الأقاليم إلا للملاك البروتستنت الذين يدفعون ضريبة سنوية قدرها أربعون شلناً ، ومجموعهم نحو ١٦٠,٠٠٠ . ولما كان التصويت علنياً ، فإن قليلين جداً من الناخبين كانوا يجرءون على تأييد أى مرشح غير الذى رشحه كبار ملاك الإقليم ، ومن ثم لم يكترث بالتصويت الا نفر قليل نسبياً من الناخبين ، وكان الكثير من الإنتخابات يتقرر بترتيب يتفق عليه الزعماء دون اقتراع على الإطلاق . وكان كبار ملاك الأرض يرون أن من الإنصاف لهم — وهم يراهنون بالكثير فى سياسة الحكومة ومصير الأمة — أن يكون تمثيلهم فى البرلمان متناسباً مع ثروتهم . وقد وافق على هذا الرأى معظم صغار الملاك .

أما المدن فقد تمثل فيها تنوع مربك من الأنماط الانتخابية . ففى مدينة وستمنستر (وسط لندن حالياً) كان هناك نحو تسعة آلاف ناخب ، وفى مدينة لندن كما كانت مكونة آنئذ ستة آلاف ؛ وفى برستل خمسة آلاف ؛ ولم تضم أكثر من ألف ناخب سوى اثنتين وعشرين مدينة[٤] وفى اثنتى عشرة مدينة كان التصويت من حق جميع الذكور؛ وفى معظم المدن الباقية اقتصر على ذوى الأملاك ؛ وفى عدة مدن كان المرشحون ينتخبهم « تكتل » بلدى عرف بأنه « أوليجركية حضرية من المحامين والتجار والسماسرة وصانعى الجعة ، تحصنت فى تكتل ينتخب ذاته ، وخولت له براءة ملكية الهيمنة وحده على أملاك المدينة »[٥]. وكان بعض هذه التكتلات يعطى صوته للمرشح (أو المرشحين) الذى يدفع راعيه (أو راعيهم) أغلى ثمن . ففى ١٧٦١ أعلنت مدينة صدبرى صراحة عن بيع صوتها ؛ وفى الانتخاب التالى عرضت بلدية أكسفورد رسمياً أن تعيد انتخاب أعضائها فى البرلمان إذا دفعوا ديون البلدية[٦] . وكان امتياز اختيار المرشح فى بعض المدن يملكه بحكم العادة أفراد أو أسر معينة لاتسكن هناك بالضرورة ، وآية ذلك أن اللورد كاملفورد كان يفاخر بأنه لوشاء لاستطاع أن ينتخب ساقيه الزنجى للبرلمان[٧] . وكانت « دوائر الجيب » هذه تباع أحياناً كالسلع . فاشترى اللورد أجرمونت مدهرست ودفع فيها ٤٠,٠٠٠ جنيه[٨] وفى بعض « الدوائر

الفاسدة Rotten boroughs » كانت حفنة من الناخبين تستطيع أن تبعث إلى البرلمان نائباً أو أكثر فى حين لم يكن نصيب مدينة لندن غير أربعة . وحتى حين كان حق التصويت للجميع تقريباً وكان العامل الذى يحسم الانتخاب عادة هو الرشوة أو العنف أو إثمال الناخب العنيد بالخمر إلى درجة تعجزه عن الأدلاء بصوته (٩) . وقد سيطر ١١١ « راع » على الانتخابات بمختلف الوسائل فى ٢٠٥ مدينة(١٠) . وبلغ عدد الناخبين نحو ٨٥,٠٠٠ فى المدن ، و ١٦٠,٠٠٠ فى الأقاليم — والجملة ٢٤٥,٠٠٠ .

من هذه الانتخابات المتباينة جاء أعضاء مجلس العموم البالغ عددهم ٥٥٨ عضواً فى ١٧٦١ . فأرسلت أسكتلنده خمسة وأربعين ، وأقاليم انجلتره وويلز أربعة وتسعين ، والمدن ٤١٥ ، والجامعتين نائبين عن كل . وكان مجلس اللوردات يضم آنئذ ٢٢٤ من كبار النبلاء ، علمانيين أو روحيين ، وكان « الامتياز البرلمانى » « يشمل حق البرلمان فى إقرار مشروعات القوانين المقدمة للتشريع ، وفى فرض الضرائب وبهذا يملك « قوة المال » ، وفى الحكم على مسوغات الأشخاص الذين يطالبون بقبولهم فى عضويته ، وأن يعاقب — بالسجن إن شاء — أى ضرر يلحق بأعضائه أو أى عصيان لقواعده ؛ وأن يتمتع بكامل حرية الكلام ، بما فى ذلك الحصانة من العقاب على الألفاظ التى يتفوه بها فى البرلمان .

أما انقسام الأعضاء إلى محافظين Tories وأحرار whigs فكان فى ١٧٦١ قد فقد تقريباً كل دلالة ، وكان الانقسام الحقيقى بين المؤيدين والمعارضين لـ « الحكومة » الحالية ، أو الوزراء ، أو الملك . وكان المحافظون بوجه عام يحمون مصالح ملاك الأرض ؛ والأحرار على استعداد بين حين وحين للنظر فى رغبات طبقة رجال الأعمال ؛ وفيما خلا ذلك كان كلا المحافظين والأحرار محافظين على السواء . ولم يشرع أحد الحزبين قوانين لمصلحة الجماهير .

والمشروع لايصبح قانوناً إلا إذا وافق عليه مجلسا البرلمان ووقعه الملك ، وكان الملك يملك « الحق الملكى الخاص » أى السلطات ، والامتيازات ،

والحصانات الممنوحة له بحكم العرف والقانون الانجليزيين . فكان له سلطات حربية : فهو القائد الأعلى للجيش والبحرية ، يستطيع اعلان الحرب ، ولكنه يحتاج إلى المخصصات البرلمانية ليخوضها ؛ ويستطيع المفاوضة لإبرام المعاهدة وعقد الصلح . وكان له بعض الحقوق التشريعية ، فهو يستطيع الامتناع عن الموافقة على مشروع أقره البرلمان — ولكن كان فى استطاعة البرلمان أن يحمله على الموافقة بما يملك من قوة المال ، وعلى ذلك لم يمارس ذلك الحق اطلاقاً بعد ١٧١٤ ؛ وكان يستطيع الإضافة إلى القوانين بالتصريح لم يمارس ذلك الحق اطلاقاً بعد ١٧١٤ ؛ وكان يستطيع الإضافة إلى القوانين بالتصريح أو بالأوامر الصادرة من مجلسه الخاص ، ولكنه لايستطيع تغيير القانون العام ، أو استحداث جريمة جديدة ؛ أما المستعمرات فيستطيع أن يشرع لها كما يشاء . وكان له سلطات تنفيذية . فله وحده أن يدعو البرلمان أو يؤجله أو يفضه ، وكان يعين الوزراء الذين يوجهون السياسة والإدارة . وكان بعض الضجة التى اصطخبت فى العقود الأولى (١٧٦٠ — ٨٢) من حكم جورج الثالث الذى امتد ستين عاماً يدور حول مدى حق الملك فى اختيار الوزراء وتقرير السياسة .

وقد ضيق حق الملك فى التشريع ولم يكن ممكناً جعل المشاريع التى يقترحها وزراؤه على البرلمان قانوناً إلا بإقناع مجلسى البرلمان كليهما بقبولها . وكان هذا يتم بالمساومات السياسية ، أو بالوعد بالمناصب أو المعاشات أو بقبضها ، أو بالرشوة (فى ١٧٧٠ كان أكثر من ١٩٠ عضواً فى مجلس العموم يملكون وظائف تعيين فى الحكومة) . أما الأموال والمكافآت التى تتطلبها هذه العمليات فكان أكثرها يأتى من « القائمة المدنية » للملك ، وهى حساب نفقاته لشخصه ولأسرته (المخصصات الملكية) ، ولبيوته وخدمه ، وللرواتب التى يدفعها ، وللمعاشات الممنوحة على سبيل المكافأة . وقد خصص البرلمان لجورج الثالث ٨٠٠,٠٠٠ جنيه فى العام لهذه القائمة المدنية ؛ ولكنه كثيراً ما تجاوز هذا المبلغ فى نفقاته ؛ وفى ١٧٦٩ أضاف البرلمان ٥١٣,٥١١ جنيهاً ، وفى ١٧٧٧ أضاف ٦١٨,٣٤٠ جنيهاً ليدفع الديون الملكية . وكان بعض مال الملك يستخدم فى شراء الأصوات فى الانتخابات البرلمانية[١١] ،

وبعضه لشراء الأصوات فى البرلمان نفسه . وفى حالات كثيرة كانت الاعتمادات التى يوافق عليها البرلمان للخدمات السرية ترد إلى البرلمان على هيئة رشاوى. فإذا أضفنا إلى هذه التجارة الملكية المال الذى ينفقه فى الانتخابات أو التشريع « النوابون » العائدون إلى انجلتره بثروة جمعوها فى الهند ، أو رجال الأعمال الساعون إلى عقود حكومية أو إلى تفادى تدخل الحكومة ، اكتملت لنا صورة للفساد السياسى منقطعة النظير غربى الأودر ، تكشف عن طبيعة البشر كشفاً لا يشرح الصدور .

وينبغى أن نلاحظ هنا بعض التفاصيل الصغيرة للنظام البريطانى . فقد فرضت الضرائب على جميع ملاك الأرض كباراً أو صغاراً ؛ وربما كان هذا عاملا من عوامل الاحترام الذى أبداه عامة الشعب نحو طبقة النبلاء . ولم يسمح البرلمان بجيش دائم — بل سمح بمليشيا فقط ؛ وكان هذا عاملا صغيراً فى ثراء انجلتره المتفوق فى وقت كانت فرنسا تنفق فيه على جيش دائم عدته ١٨٠,٠٠٠ مقاتل وبروسيا ١٩٠,٠٠٠ ، وروسيا ٢٢٤,٠٠٠ . على أنه فى زمن الحرب كانت القوات المساحة تجند دون هوادة سواء بالتطوع أو الإكراه ، وكانت انتهاكات الحرية الشخصية نتيجة لهذه العادة ، وألوان القسوة الموحشة فى حياة الجيش والبحرية ، أطيافاً قاتمة تلوث المسرح الانجليزى .

وفى رأى بلاكستون (حوالى ١٧٦٥) أن بناء انجلتره السياسى كان خير ما سمحت به طبيعة الناس وتعليمهم فى تلك الحقبة . وقد استشهد بالرأى القديم القائل بأن خير أنواع الحكم ما جمع بين الملكية والارستقراطية والديمقراطية ، وقد وجد هذه كلها « مجتمعة اجتماعاً حسناً وموفقاً » فى الدستور البريطانى . يقول :

« فبما أن السلطة التنفيذية للقوانين عندنا مخولة لشخص فرد ، فإن لها كل مزايا القوة والنجاز التى توجد فى أكثر الملكيات استبداداً ؛ وبما أن تشريع المملكة موكول إلى سلطات متميزة ثلاث ، مستقلة كل الاستقلال بعضها عن بعض ؛ أولا الملك ، ثانياً اللوردات الروحيين والزمنيين الذين

يؤلفون مجلساً أرستقراطياً من أشخاص اختيروا لتقواهم أو عراقتهم أوحكمتهم أو بسالتهم أو ثرائهم ؛ ثالثاً مجلس العموم الذى يختاره أفراد الشعب اختياراً حراً من بينهم ، مما يجعله نوعاً من الديمقراطية ؛ وبما أن هذه الهيئة الكلية التى تحركها مختلف الدوافع والتى تعنى بمختلف المصالح . . . لها التصرف الأعلى فى كل شىء ، فلا يمكن أن يكون هناك عمل مزعج يحاوله أى فرع من الفروع الثلاثة إلا حال دونه الفرعان الآخران ؛ لأن كل فرع مسلح بسلطة سلبية تكفى لصد أى بدعة تراها غير لائقة أو خطرة . هنا إذن تكمن سيادة الدستور البريطانى ، وتكمن على خير ما يمكن للمجتمع (١٢) .

وقد تبتسم لنزعة المحافظة المشوبة بحب الوطن لفقيه قانونى شامخ ينظر إلى الأمر من موقعه العالى المريح ، ولكن أغلب الظن أن حكمه كانت تكرسه تسعون فى المائة من الشعب الانجليزى أيام جورج الثالث .

٢ — أبطال الدراما

كان أشخاص الدراما من أشهر من حواهم التاريخ الانجليزى . فعلى القمة جورج الثالث الذى تربع على العرش طوال الأعوام المنحوسة (١٧٦٠ — ١٨٢٠) التى مرت بانجلتره خلال الثورتين الأمريكية والفرنسية وحروب نابليون . وكان أول الملوك الهانوفريين المولودين فى انجلتره ، أول من نظر إلى نفسه كرجل انجليزى ، وأول من استغرقه الاهتمام بالشئون الانجليزية . وهو حفيد جورج الثانى ، وابن فردريك لويس أمير ويلز العتيد الذى كان قد مات فى ١٧٥١ . وكان ملك المستقبل جورج الثالث آنئذ فى الثانية عشرة من عمره . وخافت عليه أمه ، أوجستا أميرة ساكسى — جوتا من « شباب الطبقة العليا الأراذل سيىء التربية » الذين كانت تلقاهم ، فعزلته عن مثل هذه المعاشرات ، ونشأته — واحداً من ثمانية أطفال — فى عزلة مانعة عن الألعاب والأفراح والضجيج والتفكير فى أترابه وفى جيله . ومن ثم شب هياباً ، كسولا ، متديناً ، سيىء التعليم ، تعساً . وقد قال لأمه اللوامه « لو أننى رزقت ولداً لما جعلته تعساً كما تجعلينى (١٤) » . وقد بثت فيه احتقارها لجده لأنه أطاق تسيد البرلمان ، وكانت تردد على مسامعه المرة بعد المرة ، « كن ملكاً يا جورج ! » — وأهابت به أن ينتزع قيادة الحكم النشيطة من جديد .

وهناك رواية متواترة كثيراً ما يشوبها الشك تنسب إلى الفتى شرف التأثر بكتاب بولنجبروك « مفهوم الملك الوطنى » (١٧٤٩) الذى حث الحكام على « أن يحكموا ولا يكتفوا بأن يملكوا » وأن يسنوا القوانين لتحسين الحياة الانجليزية[١٥] (مع « السماح للبرلمان بأن يحتفظ بالسلطات التى يملكها » . وقد وصف اللورد وولد جريف جورج فى عام ١٧٥٨ ، وكان أحد معلميه ، بأنه « أمين غاية الأمانة ، ولكنه يفتقد ذلك السلوك الصريح المفتوح الذى يجعل الأمانة صفة محببة . . . وهو لا يفتقر إلى العزيمة ، ولكنها مشوبة بعناد شديد . . . وفى طبعة ضرب من الشعور بالتعاسة . . . مما سيكون مصدراً لقلق دائم »[١٦] . وقد لازمته هذه الصفات إلى نهاية الحقبة التى كان عقله فيها سليماً .

وبعد أن مات أبو جورج وثقت الأرملة صداقتها بجون ستيوورت ، ايرل بيوت ، أمين الأرواب فى البيت الأميرى . وكان بيوت فى الثامنة والثلاثين فى ١٧٥١ ، متزوجاً منذ خمسة عشر عاماً بمارى ورتلى مونتجيو ابنة الليدى مارى مونتجيو الشهيرة . وفى الأعوام الأخيرة السابقة لارتقاء جورج العرش اتخذ بيوت كبيراً لأمنائه ومعلميه . وكان معجباً بعلم هذا الاسكتلندى ونزاهته ، وتقبل مشورته شاكراً ، ولقى منه التشجيع على اعداد نفسه للقيادة العدوانية فى الحكم . وحين خطر للأمير الشاب أن يعرض الزواج على حسناء فى الخامسة عشرة تدعى الليدى ساره لينوكس ، أذعن فى حزن ولكن فى محبة لنصح بيوت بوجوب زواجه من أميرة أجنبية تعينه على دعم تحالف سياسى نافع . وكتب إليه يقول « انى أسلم مستقبلى بين يديك ، وأمنه نفسى من التفكير حتى فى غرامى الحبيب ، وأجتر حزنى فى صمت ، دون أن أكدرك بعد اليوم اطلاقاً بهذه القصة التعسة ؛ لأنه لو فرض على الخيار بين فقد صاحبى أو حبيبتى ، لضحيت بالأخيرة يقيناً ، لأننى أقدر صداقتك فوق أى متعة أرضية »[١٧] وقد أخذ جورج بيوت معه حين ارتقى العرش .

وشهد ملكه خطوباً وكوارث من أفجع ما منيت به انجلتره فى تاريخها ، وعليه وقع جانب من التبعة . ومع ذلك كان هو ذاته دون ريب رجلا مسيحياً ،

وإنساناً مهذباً عادة ، قبل لاهوت الكنيسة الإنجلكانية ، وتمسك بطقوسها فى إخلاص وتواضع ، ووبخ واعظاً للبلاط امتدحه مرة فى عظة . وقد حاكى خصومه السياسيين فى استعمال الرشوة ، وبز معلميه فى هذا المضمار ، ولكنه كان مثالا فى الفضيلة فى حياته الخاصة . وفى جيله الذى اشتهر بالإباحية الجنسية أعطى انجلتره قدوة فى الوفاء الزوجى كانت النقيض لخيانات أسلافه وانحرافات أخوته وأبنائه . وكان آية فى اللطف والعطف فى كل شىء إلا الدين والسياسة ، بسيط العادات والميول وإن كان مسرفاً فى العطاء . وقد منع القمار فى بلاطه ، وكد وكدح فى الحكم بعزيمة صادقة ، فكان يهتم بالتفاصيل الدقيقة ، ويبعث بتعليماته لمساعديه ووزرائه مراراً كل يوم . ولم يكن بيورتانيا متزمتاً مكتئباً ، فقد أحب المسرح والموسيقى والرقص . ولم تعوزه الشجاعة : فقد حارب خصومه السياسيين بعناد طوال نصف قرن ؛ وواجه جمهوراً عنيفاً من الرعاع ببسالة فى ١٧٨٠ ، واحتفظ برباطة جأشه خلال محاولتين للاعتداء على حياته . وقد أقر فى صراحة بعيوب تعليمه ، وظل إلى النهاية بريئاً نسبياً من الأدب والعلم والفلسفة . وإذا كان ضعيف العقل بعض الشىء فلعل ذلك مرده التواء فى الجينات أو إهمال فى معلميه ، كما كان مرده مئات الضغوط التى تكتنف الملك .

ومن مآخذه أنه كان يغار من الأكفاء النزاعين إلى الاستقلال برأيهم ويشك فيهم . فلم يستطع قط أن يغتفر لوليم بت الأول ما شعر به من تفوق فى الرؤية والفهم السياسيين ، وفى نفوذ الحكم ، وفى قوة الخطابة وبلاغتها. وقد سبق أن رأينا[١٨] سيرة هذا الرجل الفذ منذ دخوله البرلمان (١٧٣٥) حتى انتصاره فى حرب السنين السبع . وكان فى استطاعته أن يكون متغطرساً عنيداً — أكثر كثيراً من جورج الثالث ؛ فقد شعر أنه هو الحارس الحقيقى للإمبراطورية التى خلقت تحت قيادته ؛ فلما التقى الملكان — الملك الإسمى والملك الفعلى — تلا اللقاء صراع بينهما على العرش . وكان بت رجلا نزيهاً لم تلوثه الرشوة التى استشرت من حوله ، ولكنه لم يفكر فى السياسة إلا بلغة المنعة القومية ، ولم يسمح لأى عاطفة رحمة أن تثنى عزمه على احراز التفوق الأعظم لانجلتره . وقد لقب « العامى العظيم » لا لأنه فكر فى تحسين ظروف

وأحوال عامة الشعب بل لأنه كان أعظم رجل فى مجلس العموم ؛ على أنه انبرى للدفاع عن الأمريكيين وشعب الهند ضد ظلم الانجليز وكان كالملك يكره النقد « غير مبال للنسيان أو الصفح » (١٩) وكان يأبى أن يخدم الملك إلا إذا استطاع أن يسيطر عليه ، وقد استقال من الوزارة (١٧٦١) حين أصر جورج الثالث على انتهاك اتفاق انجلتره مع فردريك وعقد صلح منفرد مع فرنسا . وإذا كان قد قهر فى النهاية فإن العدو الذي قهره لم يكن غير النقرس .

ويضارع تأثير بت فى السياسة الانجليزية تأثير إدموند بيرك فى الفكر الانجليزى . وقد اختفى بت من المسرح فى ١٧٧٨ ، وظهر عليه بيرك فى ١٧٦١ ، وظل يشد انتباه المثقفين من الانجليز فى فترات متقطعة حتى عام ١٧٩٤ ، ورما كان مولده فى دبلن (١٧٢٩) لأحد المحامين عقبة فى طريق كفاحه للمنصب والسلطة السياسيين ، فهو لم يكن انجليزياً إلا بالتبنى ، ولا عضواً فى أى أرستقراطية إلا أرستقراطية الذهن . ولا بد أن كثلكة أمه وأخته كان لها دخل فى عطفه طوال حياته على كاثوليك انجلتره وايرلنده ، وتأكيده الذى لابنى على الدين بوصفه حصناً لا غنى عنه للأخلاق والدولة . وقد تلقى تعليمه المدرسى فى مدرسة للكويكر فى باليتور ، وفى كلية ترنتى بدبلن . وتعلم من اللاتينية ما يكفى للإعجاب بخطب شيشرون ولجعلها الأساس لأسلوبه البلاغى .

وفى ١٧٥٠ انتقل إلى انجلتره ليدرس القانون فى « مدل تمبل » . وقد امتدح القانون فيما بعد لأنه (علم يعين على شحذ الفهم وتنشيطه أكثر من جميع ألوان المعرفة مجتمعة» ولكنه ذهب إلى أنه « لا يصلح لفتح مغاليق العقل وتحريره بذات القدر بالضبط ، اللهم إلا فى أشخاص محظوظى المولد »(٢٠) وحوالى ١٧٧٥ قبض أبوه عنه الراتب الذى يمده به بحجة أنه يهمل دراسة القانون مؤثراً عليها هوايات أخرى . ويبدو أن ادموند كان قد هوى الأدب ، وكان يختلف إلى مسارح لندن وأنديتها الخطابية ، وسرت أسطورة زعمت أنه هام بالممثلة الشهيرة بيج ووفنجتن . كتب إلى صديق

فى ١٧٥٧ يقول : « لقد كسرت كل قاعدة ، وأهملت كل لياقة » ، ووصف « أسلوب حياته » بأنه تتنوع فيه مختلف الخطط ، فأنا فى لندن ، وأنا فى أنحاء نائية من الريف ، وأنا آخر فى فرنسا ، وعما قريب فى أمريكا أن استجاب لى الله » . وفيما خلا هذا لا نعرف عن بيرك شيئاً فى سنى الاختبار والتجريب تلك ، اللهم إلا أنه فى ١٧٥٦ ، فى تعاقب غـــير مؤكد ، نشر كتابين رائعين وتزوج .

وأحد الكتابين عنوانه « دفاع عن المجتمع الطبيعى ، أو نظرة إلى ألوان الشقاء والشر التى يجرها على البشر كل نوع من أنواع المجتمع الاصطناعى ، خطاب إلى اللورد — بقلم كاتب نبيل متوفى » . والمقال الذى بلغت صفحاته نحو خمس وأربعين ، هو فى عنوانه ادانة قوية لكل أنواع الحكم . فيه من النزعة الفوضوية أكثر كثيراً مما فى مقال روسو « الأصل فى عدم المساواة » الذى ظهر قبل ذلك بســـنة فقط . وقد عرف بيرك المجتمع الطبيعى بأنه « مجتمع أساسه الرغبات والغرائز الفطرية لا أى نظام وضعى »[٢١] . « فتطور القوانين كان انحطاطا »[٢٢] ، وما التاريخ إلا سجلا للمجازر والغدر والحرب[٢٣] ، والمجتمع السياسى متهم بحق بأكبر قسط من هذا الدمار »[٢٤] . وكل الحكومات تتبع المبادىء المكيافللية ، وترفض كل الضوابط الأخلاقية ، وتعطى المواطنين مثالا مفسداً للجشع والخديعة واللصوصية والقتل[٢٥] . والديمقراطية فى أثينا وروما لم تأت بعلاج لشرور الحكم ، لأنها سرعان ما انقلبت دكتاتورية بفضل قدرة زعماء الدهماء على الظفر بإعجاب الأغلبيات الساذجة . أما القانون فهو الظلم مقنناً ، فهو يحمى الأغنياء المتبطلين من الفقراء المستغلين[٢٦] ، ويضيف إلى ذلك شراً جديداً — هو المحامون[٢٧] « لقد أحال المجتمع السياسى الكثرة ملكاً للقلة » . فانظر إلى حال عمال المناجم فى انجلتره ، وفكر ملياً أكان من الممكن أن يوجد شقاء كشقائهم فى مجتمع طبيعى — أى قبل وضع القوانين — أفينبغى رغم ذلك أن نقبل الدولة ، كما نقبل الدين الذى يساندها ، على أنها قد استلزمتها طبيعة الإنسان ؟ كلا على الإطلاق .

« ان كانت نيتنا أن نخضع عقلنا وحريتنا للاغتصاب المدنى ، فإنه لا سبيل أمامنا إلا الامتثال بكل ما نستطيع من هدوء للأفكار والتصورات السوقية (الشعبية) المرتبطة بهذا ، واعتناق لاهوت السوقة وسياستهم سواء بسواء أما إذا رأينا هذه الضرورة وهمية لا حقيقية ، فإننا سننبذ أحلامهم عن المجتمع كما ننبذ رؤاهم عن الدين ، ونحرر أنفسنا حرية كملة »[٢٩] .

وفى هذا رنين شجاع وإخلاص غاضب من راديكالى شاب ، فتى متدين روحاً ولكنه يرفض اللاهوت المقرر ، شديد الإحساس بما رأى فى انجلتره من فقر وانحطاط ، وصاحب موهبة واعية بذاتها ولكنها لم تزل بغير مكان ولا مقام فى خضم العالم . وكل فتى يقظ يمر بهذا الظور فى طريقه إلى المنصب ، والثراء ثم النزعة المحافظة المرتاعة التى سنجدها فى كتاب بيرك « تأملات فى الثورة فى فرنسا » . ونلاحظ أن مؤلف « الدفاع » تخفى وراء اسم مجهول ، حتى إلى حد ادعاء الموت . وقد فهم كل القراء تقريباً ، بما فيهم وليم وربرتن وايرل تشسترفيلد الكتيب على أنه هجوم صادق على الرذائل الشائعة[٣٠] ، ونسبه الكثيرون إلى الفيكونت بولنجبروك ، لأن عبارة « كاتب نبيل متوفى » تنطبق عليه إذ كان قد مات عام ١٧٥١ . وبعد نشر المقال بتسع سنوات رشح بيرك نفسه للانتخاب فى البرلمان . وخشى أن تؤخذ فورة أيام الشباب حجة عليه ، فأعاد طبع المقال فى ١٧٦٥ بمقدمة جاء فى قسم منها « أن الغرض من القطعة الصغيرة التالية كان أن تبين أن . . . الأدوات (الأدبية) ذاتها التى استخدمت لتدمير الدين قد تستخدم بنجاح مماثل لقلب الحكومة »[٣١] . وقد قبل معظم كتاب سيرة بيرك هذا التفسير على أنه تفسير صادق مخلص ، ونحن لانستطيع أن نوافقهم على رأيهم ، ولكنا نستطيع أن نفهم جهد المرشح السياسى لحماية نفسه من تحامل الشعب. فمن منا يكون له مستقبل لوعرف ماضيه ؟

ويعدل « الدفاع » بلاغة ويفوقه حذقاً وبراعة مؤلف بيرك الآخر الذى نشره فى ١٧٥٦ وعنوانه « تحقيق فلسفى فى أصل الجليل والجميل » ، وقد أضاف إليه فى طبعة ثانية « مقال فى الذوق » ولسنا نملك إلا الإعجاب

بشجاعة الشاب ذى السبعة والعشرين عاما الذى عالج هذه الموضوعات المحيرة قبل « لاوكون » لسبنج بعقد كامل . ولعله استرشد باستهلال الجزء الثانى من كتاب لوكريتويس عن « الطبيعة » الذى نصه « يطيب لك حين تلطم الرياح الأمواج فى خضم عجاج أن تشهد من البر ما يكابده إنسان آخر من عنت شديد ، لا لأنه مبعث بهجة أن تشهد شدة أى إنسان ، بل لأنه جميل أن ترى من أى الشرور أنت نفسك قد نجوت» . ومن ثم يكتب بيرك : « ان العواطف المشبوبة التى تنتمى لحفظ الذات تدور حول الألم والخطر ؛ فهى ببساطة عواطف مؤلمة حين تؤثر أسبابها فينا تأثيراً مباشراً ، وهى مبهجة حين يكون لدينا فكرة عن الألم والخطر دون أن نكون فعلا فى ظروف كهذه . . . وكل ما يثير هذا الابتهاج أسميه جليلا» . ويلى ذلك أن « كل الأعمال المتسمة بالعظيم من الجهد والنفقة والبهاء جليلة . . وكذلك كل الصروح الفائقة الغنى والأبهة . . . لأن العقل وهو يتأملها يطبق أفكار عظم المجهود اللازم لإنتاج مثل هذه الأعمال على الأعمال ذاتها »[٣٢] . والغموض والظلام والخفاء كلها تعين على انبعاث إحساس بالجلال ، ومن هنا حرص معمارى العصر الوسيط على ألا يسمحوا إلا للضوء الخافت المصفى بالتسلل إلى كتدرائياتهم . وقد أفاد القصص الروما نتيكى من هذه الأفكار كما نرى فى قصة هوراس ولبول « قلعة أوترانتو» (١٧٦٤) أو قصة آن رادكلف « خفايا أودلفو » (١٧٩٤) .

يقول بيرك « ان الجمال اسم سأطلقه على كل صفات فى الأشياء تثير فينا إحساساً بالمحبة والحنان ، أو أى عاطفة حارة أخرى قريبة الشبه بهما[٣٣] . وقد رفض رد الكلاسيكيين هذه الصفات إلى الانسجام والوحدة والتناسب والتماثل ؛ فكلنا نتفق على أن البجعة جميلة مع أن عنقها الطويل وذيلها القصير غير متناسبين مع جسمها . والجميل يكون عادة صغيراً (وبهذا يكون نقيضاً للجليل) .

« لست أتذكر الآن شيئاً جميلا لا يتصف بالنعومة »[٣٤] ، فالسطح المكسر أو الخشن ، والزاوية الحادة أو النتؤ الفجائى ، كلها تضايقنا وتحد من سرورنا حتى فى أشياء تكون جميلة لولا هذا « ومظهر الغلظ والقوة

مؤذ جداً للجمال ، أما مظهر الرقة ، لا بل الهشاشة ، فيكاد يكون أساسياً للجمال »[٣٥] . واللون يزيد من الجمال لا سيما إذا كان متنوعاً مشوقاً ، دون أن يكون وهاجاً أو قوياً . . . ولم يسأل بيرك هل المرأة جميلة لأنها صغيرة الحجم ناعمة رقيقة مشرقة ، أم أن هذه الصفات تبدو جميلة لأنها تذكرنا بالمرأة ، التى هى جميلة لأنها تشتهى .

على أية حال كانت جون نوجنت مشتهاة ، فتزوجها بيرك فى سنة ١٧٥٦ المثمرة هذه . وكانت ابنة طبيب إرلندى . وكانت كاثوليكية ، ولكنها لم تلبث أن ارتضت الإنجليكانية مذهباً . وقد لطف طبعها الدمث الرقيق من مزاج زوجها الغضوب .

وفتحت الأبواب أمام بيرك بفضل تأثير أسلوب « الدفاع » و« التحقيق » ان لم يكن تأثير حججهما . فعينه مركيز روكنجهام سكرتيراً له ، رغم أن دوق نيوكاسل حذره قائلا ان بيرك إرلندى متوحش ، وستيوارتى ، وبابوى ويسوعى مستخف[٣٦] . وفى أواخر عام ١٧٦٥ أنتخب بيرك لعضوية البرلمان عن دائرة وندوفر بفضل نفوذ اللورد فيرنى ، « الذى كان يمتلكها »[٣٧] . وفى مجلس العموم اشتهر العضو الجديد بأنه خطيب مفوه وان لم يكن مقنعاً . كان صوته أجش ، ولهجته هيبرنية (أى إرلندية) ، وإيماءاته تعوزها الرشاقة ، ونكته سوقية أحياناً ، واتهاماته حارة مشبوبة فى غير موجب . ولم يدرك الناس — إلا حين قرءوا له — انه انما يخلق أدباً وهو يتكلم — وذلك بفضل تمكنه من اللغة الانجليزية ، وأوصافه الناصعة ، وسعة معرفته وشروحه ، وقد رته على تطبيق الرؤية الفلسفية على قضايا الساعة . ولعل هذه المزايا كانت معوقات فى مجلس العموم . ويروى لنا جولد سمث أن بعض سامريه « كانوا يحبون أن يروه يتسلل كالثعبان إلى موضوعه »[٣٨] ولكن كثيرين غيرهم ضاقوا ذرعاً بأسرافه فى التفاصيل ، وباستطراداته النظرية ، وبخطبه المنمقة ، وبجمله المتكررة الضخمة ، وبتحليقاته فى أجواء التأنق الأدبى ؛ فهم يريدون الاعتبارات العملية

والموضوعية المباشرة ؛ لقد امتدحوا بيانه ، ولكنهم تجاهلوا نصيحته . ومن ثم نرى جونسن يرد على بوزويل الذى شبه بيرك بالصقر فيقول : « أجل يا سيدى ولكنه لا يصيد شيئاً »(٣٩) وقد ظل إلى نهاية حياته العملية تقريباً يدافع عن سياسات لايسيغها الشعب ، ولا الوزارة ، ولا الملك . قال : « أنا عليم بأن الطريق الذى أسير فيه ليس طريق الترقى إلى المنصب الرفيع »(٤٠).

ويبدو أنه خلال سنوات تسلقه قرأ كثيراً وقرأ بفطنة وتمييز . وقد وصفه أحد معاصريه بأنه موسوعى يفيد كل إنسان من ذخيرته العلمية . وقد أثنى عليه فوكس ثناء لا حد له إذ قال : « لو أنه (أى فوكس) وضع فى كفة كل المعلومات السياسية التى تعلمها من الكتب ، وكل ما اكتسبه من العلم ، وكل ما علمته الخبرة بالدنيا وشئونها ، ثم وضع فى الكفة الأخرى الفائدة التى اكتسبها من تعليم صديقه المبجل وحديثه ، لاحتار أيهما يفضل »(٤١) أما جونسن — وهو الضنين بالمدح عادة — فقد اتفق مع فوكس فقال : « لن تستطيع الوقوف خمس دقائق مع ذلك الرجل تحت ظلة أثناء المطر ، ولكنه لابد مقتنع بأنك كنت تقف مع أعظم رجل رأيته فى حياتك »(٤٢) .

وقد انضم بيرك إلى ندوة جونسن — رينولدز حوالى عام ١٧٥٨ . وندر أن التحم فى نقاش مع المناظر الذى لا يقهر ، ربما لأنه كان يخشى من حدة طبعه هو كما يخشى من حدة طبع جونسن ؛ ولكنه حين فعل ، نكص « الخان الأكبر » (جونسن) على عقبيه . وحين مرض جونسن ، وذكر بعضهم بيرك ، صاح الدكتور « ان هذا الفتى يستنفر كل قواى ، ولو رأيت بيرك الآن لكان فى ذلك القضاء على »(٤٣) . ومع ذلك كان الرجلان متفقين على معظم القضايا الأساسية فى السياسة والأخلاق والدين . فقد قبلا حكم بريطانيا الأرستقراطى مع أن كليهما كان من العامة ؛ واحتقرا الديمقراطية لأنها تتويج للكفايات الهزيلة ؛ ودافعا عن المسيحية التقليدية والكنيسة الرسمية بوصفهما معقلين للأخلاق والنظام لا بديل لهما . ولم يفرق بين الرجلين غير ثورة المستعمرات الأمريكية . وقد وصف جونسن نفسه بأنه محافظ (تورى) ، ورمى الأحرار (الهوجز) بأنهم مجرمون وحمقى ؛

أما بيرك فزعم أنه حرى ، ودافع عن مبادىء المحافظين دفاعاً أقوى وأفضل تبريراً من أى رجل فى التاريخ الانجليزى .

وبدا أحياناً أنه يؤيد أكثر عناصر النظام القائم عرضة للاعتراض والمساءلة فقد عارض إحداث تغييرات فى قواعد انتخاب الأعضاء أو سن القوانين ؛ ورأى أن الدوائر الانتخابية « العفنة » أو دوائر « الجيب » (أى التى يتحكم فيها شخص أو أسرة واحدة (لا غبار عليها ما دامت ترسل رجالا أكفاء مثله إلى البرلمان . وبدلا من توسيع حق التصويت ، رأى أنه « يخفض العدد سيزداد ثقل ياخبينا واستقلالهم »[٤٤] . ومع ذلك احتضن عشرات القضايا التحررية . ودافع عن حرية التجارة قبل آدم سمث ، وهاجم النخاسة قبل ولبرفورس . ثم نصح بإزالة المعوقات السياسية المفروضة على الكاثوليك ، وأيد التماس المنشقين على الكنيسة الرسمية أو يمنحوا كامل حقوقهم المدنية . وحاول أن يلطف من صرامة قانون العقوبات الوحشية ويخفف من الأعباء التى تنؤ بها حياة الجندى . ودافع عن حرية المطبوعات وان كتوى هو نفسه بنارها . ووقف يذود عن إيرلنده وأمريكا والهند فى وجه أغلبيات شوفينية . وناصر البرلمان على الملك بصراحة وجرأة أفقدتاه كل أمل فى المنصب السياسى الرفيع . وقد تختلف معه فى آرائه ودوافعه ، ولكن لن نستطيع الشك فى شجاعته .

وقد كلفته آخر حرب شعواء شنها فى حياته العملية — وهى حرية على الثورة الفرنسية — صداقة رجل طالما كان موضع حبه وإعجابه . وكان هذا الرجل وهو تشارلز جيمس فوكس يرد على محبته بمثلها ويقاسمه أخطار المعركة فى كثير من القضايا ، ولكنه كان يختلف عنه فى كل صفة من صفات العقل والخلق تقريباً إلا الإنسانية والشجاعة . فبيرك إرلندى ، فقير ، محافظ ، متدين ، متمسك بالأخلاق ؛ وفوكس انجليزى ، غنى ، راديكالى ، لا يبقى من الدين إلا على القدر الذى يتفق والقمار والشراب والخليلات والثورة الفرنسية . كان ثالث أبناء هنرى فوكس ولكنه آثرهم عنده ، وقد ورث الأب ثروة ، وبددها ، ثم تزوج ثروة ثانية ، وجمع ثالثة وهو كبير

صيارفة القوات المسلحة ، وأعان بيوت على شراء بعض أعضاء مجلس العموم، وأثيب بلقب البارون هولند ، وشهر به خصومه (مختلساً عاماً لملايين لاتفسير لضياعها »[٤٥] أما زوجته كارولين لينوكس فكانت حفيدة تشارلز الثانى من لوير دكيروای ، وهكذا جرى فى عروق تشارلز جيمس الدم المخفف لملك استيوارتى خليع وامرأة فرنسية ذات مبادىء أخلاقية متسامحة . وكانت أسماؤه ذاتها ذكريات استيوارتية ، ولا بد أنها كانت تخدش مسامع الهانوفريين .

وحاولت الليدى هولند أن تنشىء أبناءها على النزاهة والشعور بالمسئولية ، أما اللورد هولند فقد تسامح مع تشارلز فى كل نزواته ، وقلب من أجله الحكم المأثورة رأساً على عقب : « لاتعمل اليوم أبدا ما تستطيع تأجيله إلى الغد ، ولا تقم بنفسك أبداً بعمل تستطيع أن تجعل إنساناً غيرك يقوم به لك » . وما كاد الصبى يناهز الرابعة عشرة حتى أخذه أبوه من كلية إيتن فى رحلة أوربية طاف بها على أندية القمار والمنتجعات المعدنية ، ورتب له خمسة جنيهات انجليزية فى الليلة للعب القمار . وعاد الفتى إلى إيتن مقامراً راسخ القدمين ، وواصل اللعب فى اكسفورد . وقد وجد متسعاً من الوقت لإدمان الاطلاع على الآداب الكلاسيكية والانجليزية على السواء ، ولكنه غادر اكسفورد بعد عامين لينفق عامين فى الرحلات وتعلم الفرنسية والطليانية ، وبدد ١٦,٠٠٠ جنيه فى نابلى ، وزار فولتير فى فرنيه ، وتلقى منه قائمة بكتب تنيره فى اللاهوت المسيحى[٤٧] . وفى ١٧٦٨ اشترى له أبوه دائرة انتخابية ، واتخذ تشارلز مقعداً فى البرلمان وهو فى التاسعة عشرة . وكان هذا مخالفاً كل المخالفة للقانون ، ولكن المعجبين من النواب بسحر الشاب الشخصى وتراثه المرتقب كانوا من الكثرة بحيث لم ينجح أى احتجاج على عضويته . وبعد عامين ، وبفضل نفوذ أبيه ، عين وزيراً للبحرية فى وزارة اللورد نورث . وفى ١٧٧٤ مات الأب والأم وابن أكبر منه ، وغدا تشارلز المتصرف الوحيد فى ثروة عريضة .

وقد شاب مظهره البدنى فى سنوات نضجه من التسيب ما شاب أخلاقه . فجواربه مرخاة الأربطة ، وسترته وصدرته مجعدتان ، وقميصه مفتوح عند

العنق ، ووجهه منتفخ محتقن بالإسراف فى الطعام والشراب ، وكرشه المتضخم يوشك أن يندلق على ركبتيه وهو جالس . وحين نازل وليم آدم فى مبارزة رفض نصيحة شاهده بأن يتخذ الوقفة الجانبية المعتادة ، إذ قال « انى غليظ فى ناحية غلظى فى الأخرى »(٤٨) ولم يحاول إخفاء عيوبه . وكان من الأقاويل الشائعة عنه أنه أثبت أنه ضحية محببة للنصابين والمحتالين من المقامرين ، وذات مرة (فى رواية جبون) قامر اثنتين وعشرين ساعة فى جلسة واحدة خسر فيها ٢٠٠,٠٠٠ جنيه . ومن أقوال فوكس أن أعظم اللذات فى الحياة بعد الربح هى الخسارة (٤٩) . وكان يملك اسطبلا لخيول السباق ، ويراهن بمبالغ كبيرة عليها ، وقد كسب منها أكثر مما خسر (كما يريدنا أن نصدق)(٥٠) .

وكان أحياناً متسيباً فى مبادئه السياسية تسيبه فى مبادئه الخلقية وهندامه ؛ فقد سمح غير مرة لمنافعه أو خصومته الشخصية أن تقرر مسلكه ، وكان أميل إلى الكسل ، ولم يكن يعد خطة أو مشروعات قوانينه البرلمانية بالعناية والدرس اللذين تميز بهما بيرك . وكان يملك فى ميدان الخطابة مزايا قليلة ، ولم يلتمس غيرها . وكثيراً ماكانت خطبه عديمة الشكل كثيرة التكرار ، صادمة للنجاة أحياناً . يقول عنه رتشرد بورسن « كان يقذف بنفسه فى معمعان جمله ويكل إليه تعالى مهمة اخراجه منها »(٥١) . ولكنه وهب من سرعة البديهة وقوة الذاكرة ما جعله بالإجماع أقدر مناقش فى مجلس العموم . كتب هوراس ولبول « ان تشارلز فوكس أسقط ساتوون (شاتام) العجوز عن عرش الخطابة »(٥٢) .

وكان معاصرو فوكس متسامحين فى أخطائه لأن كثيرين شاركوه فيها ، وقد أجمعوا تقريباً على الشهادة بفضائله . فقد ظل معظم حياته بعد عام ١٧٧٤ أميناً للقضايا التحررية مضحياً فى سبيلها تضحيات تستهين بالترقى فى المنصب وبالشعبية . أما بيرك الذى كان يحتقر الرذيلة فقد أحب فوكس رغم ذلك لأنه رآه مخلصاً فى غير أنانية للعدالة الاجتماعية والحرية الإنسانية . قال بيرك « أنه رجل خلق ليحب ، ذو طبع غاية فى البراءة والبساطة والصراحة وحب الخير ، نزيه فى اسراف ، له مزاج لطيف سمح إلى حد الإفراط ،

ليس فى كيانه بأسره ذرة حقد واحدة [٥٣] وقد اتفق معه جبون فقال « لعله لم يوجد مخلوق أكثر منه تجرداً من لوثة الحقد أو الغرور أوالكذب»[٥٤] . ولم يمتنع على هذه الجاذبية التلقائية والسحر الفطرى فى الرجل غير جورج الثالث .

وارتبط بيرك وفوكس فى قيادة عنصر الهوجز التحررى إرلندى ثان هو رتشرد برنزلى شريدان . وقد نشر جده توماس شريدان الأول مترجمات عن اليونانية واللاتينية ، وكتاباً سماه « فن التورية» ، ربما سرت عدواه إلى حفيده . أما أبوه توماس شريدان الثانى فكان فى رأى البعض لايفوقه غير جاريك ممثلا ومديراً للمسرح . وقد تزوج فرانسيس تشيمبرلن ، وكانت كاتبة مسرحية وروائية ناجحة . ونال الدرجات العلمية من دبلن وأكسفورد وكمبردج ، وحاضر فى كمبردج فى التعليم ؛ وكان الواسطة فى الحصول على معاش ملكى لجونسن ، وحصل على معاش لنفسه . وألف كتاباً مسلياً عن « حياة سويفت» وغامر بنشر « قاموس عام فى اللغة الانجليزية » (١٧٨٠) ولما ينقض على نشر قاموس جونسن غير خمسة وعشرين عاما . وأعان ابنه على إدارة مسرح دروري لين ، وشهده يصعد فى دنيا الرومانس والأدب والبرلمان .

وهكذا أتيحت لرتشرد عناصر التفوق الفكرى والدراما فى بيئته ان لم يكن فى دمه . وقد ولد فى دبلن (١٧٥١) ، وحين بلغ الحادية عشرة أوفد إلى هارو حيث أقام ست سنين واكتسب تعليماً كلاسيكياً جيداً ؛ وحين بلغ العشرين ردد صدى جده بنشره مترجمات عن اليونانية . وفى عام ١٧٧١ ذاك بينما كان يعيش فى باث مع والديه ، هام حباً بوجه إلزابث آن لنلى الجميلة وصوتها ، وكانت فى السابعة عشرة ، تغنى فى الحفلات الموسيقية التى يقدمها أبوها المؤلف توماس لنلى . والذين رأوا لوحة من اللوحات التى رسمها لها جينزبرو[٥٥] يدركون أنه لم يكن أمام رتشرد من سبيل إلا الهيام والانتشاء ، ولا أمامها هى أيضاً إذا صدقنا أخته ، إذ رأته فتى مليحاً محبباً على نحو لا يقاوم . «كان خداه يشرقان ببريق العافية ، وعيناه أبدع العيون

فى العالم . . . وله قلب رقيق محب . . . وقد شرح صدر أفراد الأسرة وأبهجهم ما اتسمت به كتاباته فيما بعد من خيال عابث وظرف أصيل ودعابة لا تؤذى . لقد أعجبت به ، بل أوشكت أن أعبده . وما كنت لأتردد فى أن أضحى بحياتى من أجله »[٥٦] .

وكان لألزابث آن خطاب كثيرون ، ومنهم تشارلز أخو رتشرد الأكبر ، وقد ضايقها أحدهم واسمه الميجر ماثيوز ، وكان غنياً ولكنه متزوج ، واشتدت مضايقته حتى أفضت بها إلى تعاطى الأفيون بغية قتل نفسها . ثم تماثلت للشفاء ، ولكنها فقدت كل رغبة فى الحياة حتى أنعش حب رتشرد روحها المعنوية من جديد . وهدد ماثيوز باغتصابها ، فهربت مع شريدان إلى فرنسا بدافع الخوف والحب معاً ، وتزوجته (١٧٧٢) ، ثم لجأت إلى دير قرب ليل فى حين عاد رتشرد إلى انجلتره ليسترضى أباه وأباها . ونازل ماثيوز فى مبارزتين ، وقد أبقى على حياة ماثيوز فى الأول بعد أن انتصر عليه ، أما فى الثانية فقد أعجز خصمه عن النزال لأنه كان ثملا بالخمر ، وهبط بالمبارزة إلى درك المصارعة ثم عاد إلى باث ملطخاً بالدم والخمر والوحل . وتبرأ منه أبوه ، ولكن توماس لنلى أعاد الزابث آن من فرنسا وبارك زواجها (١٧٧٣) .

وشرع رتشرد وهو فى الثانية والعشرين فى جمع المال بكتابة التمثيليات إذ أبت عليه كبرياؤه أن يترك زوجته تعوله بالغناء أمام الجمهور . وهكذا أخرجت أولى تمثيلياته « المزاحمون » فى ١٧ يناير ١٧٧٥ فى كوفنت جاردن ، وكان حظها سيئاً تمثيلا واستقبالا ، ثم وفق شريدان إلى ممثل أكفأ يلعب الدور الرئيسى ، وكان العرض الثانى (٢٨ يناير) بداية لسلسلة من الانتصارات المسرحية التى حققت الشهرة والثراء لشريدان . وسرعان ما راحت لندن كلها تتحدث عن السير انتونى أبسوليوت ، والسير لوشس أوتريجر ، والآنسة ليديا لانجويش ، وتقلد خلط السيدة مالا يروب بين الألفاظ[٥٨] * .

---

* يستشهد المؤلفان بعبارات خلطت السيدة مالابروب بعض ألفاظها خلطا مضحكا ، فقالت illiterate بدلا من obliterate ، و Allegory بدلا من alligator . (المترجم)

وكان شريدان يملك معينا لاينضب من النكت فى رأسه ، ينثرها على كل صفحة ، ويخلع الذكاء والظرف على الخدم والاتباع ، ويجعل الحمق يتكلمون كالفلاسفة . ولامه النقاد لأن شخوصه لم تكن دائماً متوافقة مع حديثها ، ولأن النكت والدعابات التى تفرقع فى كل مشهد وتتدفق فى كل فم تقريباً قد أثلمت لذعها بالأفراط ؛ لا ضير ، فقد استطاب النظارة هذا المرح ، وهم يستطيبونه إلى يومنا هذا .

ثم أحرزت مسرحيته « القهرمانة » نجاحا أعظم حتى من نجاح «المزاحمين» ، وقد قدمت أول مرة فى ٢ نوفمبر ١٧٧٥ على مسرح كوفنت جاردن ، واستمر عرضها خمسا وسبعين ليلة فى موسمها الأول ، فحطمت بذلك الرقم القياسى الذى حققته « أوبرا الشحاذ » فى ١٧٢٨ ، وهو ثلاث وستون ليلة . وهالت هذه المنافسة المثيرة ديفد جاريك الذى كان يمثل على مسرح دروری لين ، ولكنه لم يستطع أن يجد رداً سريعاً لاذعاً أفضل من إحياء « الاكتشاف » وهى تمثيلية من تأليف أم شريدان التى ماتت قبيل ذلك . وانتشى شريدان بخمرة النجاح ، فعرض على جاريك أن يشترى نصيب النصف الذى يملكه فى دروری لين ؛ وأحس جاريك بأنه يتقدم فى العمر ، فوافق نظير ٣٥,٠٠٠ جنيه ؛ وأقنع شريدان حماه وصديقاً له أن يساهم كل منهما بمبلغ ١٠,٠٠٠ جنيه ؛ أما هو فدفع ١,٣٠٠ جنيه نقداً ، ثم جمع الباقى بقرض (١٧٧٦) . وبعد عامين جمع ٣٥,٠٠٠ جنيه أخرى ، وأصبح مالكاً للمسرح هو وشركاؤه ، ثم تولى إدارته .

وظن الكثيرون أن ثقته بنفسه جاوزت الحد ، ولكن شريدان انتقل إلى نصر آخر حين أخرج (٨ مايو ١٧٧٧) « مدرسة الفضائح» وهى أعظم مسرحيات القرن الثامن عشر نجاحاً . واصطلح أبوه الآن معه بعد أن كان غاضباً عليه منذ فر بحبيبته قبل خمس سنوات . وتلا هذه الانتصارات فترة توقف فى صعود نجم شريدان . ذلك أن العروض التى قدمت على دروری لين تبين أن الجمهور لايقبل عليها ، وروع الشركاء شبح الإفلاس . وأنقذ شريدان الموقف بمهزلة « فارص » سماها « الناقد » وهى هجاء للدرامات

الفاجعة ونقاد الدراما المقنطعين . على أن بطأه المألوف تدخل ، فلم يكن قد كتب المشهد الأخير مع أن الافتتاح المحدد لم يبق عليه غير يومين . واستطاع حموه وآخرون بخدعة أن يستدرجوه إلى حجرة فى المسرح ، وأعطوه ورقاً وقلماً وحبراً وخمراً ، وأمروه بالفراغ من التمثيلية ، وحبسوه فى الحجرة ؛ فخرج ومعه النهاية المطلوبة ، فجربها الممثلون ووجدت وافية بالغرض ، وكان العرض الأول (٢٩ أكتوبر ١٧٧٩) ابتسامة أخرى جاد بها الحظ على الإرلندى المتحمس .

ثم تلفت من حوله باحثاً عن عوالم جديدة يغزوها ، وقرر أن يدخل البرلمان . ودفع لناخبى ستافورد خمسة جنيهات انجليزية لكل صوت ، وفى ١٧٨٠ اتخذ مكانه فى مجلس العموم لبراليا متحمساً . وشارك فوكس وبيرك فى اتهام وارن هيستنجز ، وفى يوم واحد رائع سطع نوره فحجب نورهما جميعاً . وكان أثناء هذا يعيش مع زوجته المثقفة فى هناءة وبذخ ، مشهوراً بحديثه ، وظرفه وحيويته ، ولطفه ، وديونه . وقد لخص اللورد بايرون هذه العجيبة فقال « كل ما فعله شريدان ، أو يريد أن يفعله ، رائع ، والأفضل من نوعه دائماً . لقد كتب أفضل كوميديا ، وأفضل دراما . . . وأفضل فارص . . . وأفضل خطاب (مونولوج عن جاريك) ، وتتويجاً لهذا كله ، ألقى أفضل خطبة ... تصورها الناس أوسمعوها فى هذا البلد »[٥٩] ، ثم إنه كان قد ظفر بحب أحب نساء انجلتره إلى القلوب واحتفظ بهذا الحب ،

كان شريدان كله الخيال والشعر ، ومن العسير أن نصوره فى عالم وليم بت الثانى وفى جيله نفسه ، ذلك الرجل الذى لم يعترف إلا بالواقع ، وسما فوق العاطفة وحكم بغير بلاغة . وقد ولد (١٧٥٩) فى أوج مجد أبيه ، وكانت أمه أخت جورج جرنفيل ، رئيس الوزراء ١٧٦٣ — ٦٥ ؛ رضع السياسة منذ حداثته ، وترعرع فى جو البرلمان . وإذ كان هشاً عليلا فى طفولته ، فقد أبعد عن ممارسات المدارس « الخاصة » الصارمة واتصالاتها المهيئة لحياة المجتمع ، فربى فى البيت بإشراف أبيه الدقيق ، الذى علمه طريقة الإلقاء بأن جعله يتلو شكسبير أو ملتن كل يوم . فما ناهز العاشرة حتى كان دارساً

كلاسيكياً ومؤلفاً لمأساة . ثم أرسل إلى كمبروج حين بلغ الرابعة عشرة ، فلم يلبث أن مرض ، فعاد إلى بيته ، وبعد عام ذهب ثانية ، وإذ كان ابناً لشريف من كبار الأشراف فقد تخرج أستاذاً فى الآداب عام ١٧٧٦ دون امتحان . ثم درس القانون فى لنكولنز ان ، ومارس المحاماة برهة قصيرة ، ثم رشح للبرلمان فى الحادية والعشرين عن دائرة جيب سيمن عليها السير جيمس لوذر . وكان خطابه الافتتاحى فى البرلمان مؤيداً تأييداً قوياً لما اقترحه بيرك من اصلاحات اجتماعية حتى أن بيرك وصف بأنه « ليس شظية من الشجرة العجوز (أى سر أبيه) بل هو الشجرة العجوز بعينها »(٦٠) .

وإذ كان الإبن الثانى لأبيه ، فإنه لم ينل غير ٣٠٠ جنيه راتباً سنوياً ، مع معونة بين الحين والحين من أمه وأخواله ؛ وقد شجعت هذه الظروف البساطة الصارمة فى سلوكه وخلقه . فتجنب الزواج لأنه نذر نفسه بجملته للسعى إلى السلطان . ولم يلذه قمار ولا مسرح . ومع أنه فى مرحلة لاحقة أفرط فى الشراب تهدئة لأعصابه بعد صخب السياسة وضجيجها إلا أنه اكتسب شهرة بنقاء الحياة ونزاهة المقصد ؛ وكان فى وسعه أن يشترى ، دون أن يكون فى وسع أحد أن يشتريه . وما سعى قط إلى الثراء ، وندر أن بذل تنازلات للصداقة ، ولم تكتشف غير قلة حميمة ، وراء تحفظه البارد وضبطه لمشاعره ، ما يخفى من مرح ودود ، بل من حنان ومحبة فى بعض الأحايين .

وفى مطامع عام ١٧٨٢ ، حين أوشكت وزارة اللورد نورث على الاستقالة ضمن « الصبى » — كما لقب بعض النواب بت فى تعطف — أحد خطبه اعلاناً فيه شىء من الغرابة : « أما عن نفسى ، فلا يمكن أن أتوقع أن أكون عضواً فى حكومة جديدة ، ولكن لو كانت هذه العضوية فى متناولى فإننى أراه لزاماً على أن أعلن أننى لن أقبل أبداً منصباً ثانوياً »(٦١) ، أى أنه لن يقبل منصباً أدنى من المقاعد الستة أو السبعة التى ألغت ما أصبح يسمى « مجلس الوزراء » . فلما عرضت الوزارة الجديدة أن تعينه نائباً لوزير خزانة إرلنده بمرتب ٥,٠٠٠ جنيه فى العام رفض ، وواصل العيش على إيراده البالغ ٣٠٠ جنيه . وكان واثقاً من التقدم ، وأمل أن يظفر به بفضل كفايته الشخصية ، فعكف على العمل بهمة ، وأصبح أكثر أعضاء مجلس

العموم اطلاعاً فى ميادين السياسة الداخلية ، والصناعة ، والمالية ؛ وبعد عام من اعلانه الفخور قصده الملك لا ليكون مجرد عضو فى الحكومة بل ليرأسها . ولم يحظ رجل قط قبله برآسة الوزارة وهو فى الرابعة والعشرين ؛ وقل من الوزراء من ترك على التاريخ الانجليزى بصمة أعمق مما ترك ؛

٣ ــ الملك ضــد البرلمــان

اختتم جورج الثانى ملكه الذى استغرق ثلاثة وثلاثين عاماً بشعور من النفور البين من السياسة الإنجليزية « لقد سئمت حتى الموت كل هذا الهراء الأبله ، وأتمنى من كل قلبى أن يأخذ الشيطان كل أساقفتكم ، وأن يأخذ الشيطان وزراءكم ، وأن يأخذ الشيطان برلمانكم ، وأن يأخذ الشيطان الجزيرة كلها ، على أن أخرج منها وأذهب إلى هانوفر »[٦٢] . وقد ألفى راحته فى ٢٥ أكتوبر ١٧٦٠ ، ودفن فى كنيسة وستمنستر ،

ولقى ارتقاء جورج الثالث العرش يوم وفاة جده الترحيب الحماسى من كل الانجليز تقريباً ما عدا قلة مازالت تواقة إلى أسرة ستيوارت . كان فى الثانية والعشرين ، فتى وسيماً ، مجتهداً ، متواضعاً . (كان أول ملك انجليزى منذ حكم هنرى السادس يسقط من لقبه دعوى السيادة على فرنسا) . وفى خطابه الأول للبرلمان أضاف إلى النص الذى أعده له وزراؤه كلمات ما كان أحد سلفه الهانوفرين يستطيع أن يفوه بها : « انى وقد ولدت وربيت فى هذا البلد لأفخر بأننى بريطانى » . كتب هوراس وليول يقول : انالملك الشاب يبدو عليه كل مظهر اللطف . ففيه كثير من الكياسة الذى يخفف من الوقار الشديد ، وطيبة فائقة تتفجر فى جميع المناسبات »[٦٣] . وقد زاد من حب الشعب له بالإعلان الذى أصدره فى ٣١ أكتوبر « لتشجيع التقوى والفضيلة ، ولمنع وعقاب الرذيلة ، والتبذل واللا أخلاقية » . وفى ١٧٦١ تزوج شارلوت صوفيا أميرة مكلنبورج — ستريلتس ، وقد ارتضى

خلوها من الجاذبية ، فأنجب منها خمسة عشر طفلا ، ولم يجد وقتاً لحيانتها . وكان هذا أمراً لا سابقة له فى الملوك الهانوفريين .

ولم يحب حرب السنين السبع ، يوم كان فى الرابعة من عمره ، وأحس أن فى الإمكان الوصول إلى تسوية ما مع فرنسا . ولكن وليم بت الأول ، وزير الدولة للإدارة الجنوبية ، والشخصية المسيطرة فى وزارة الدوق نيوكاسل ، أصر على مواصلة الحرب حتى توهن فرنسا وهنا أمل لها معه فى تحدى الامبراطورية التى خلقتها الانتصارات البريطانية فى كندا والهند ؛ وقد ألح فوق ذلك على ألا يعقد صالح إلا برضى فردريك الأكبر حليف انجلتره . وفى مارس ١٧٦١ عين الأيرل بيوت وزير دولة للإدارة الشمالية ، وشرع فى تنفيذ خطة لعقد صلح منفرد . وعبثاً قاوم بت ، فاستقال فى ٥ أكتوبر . وطيب جورج خاطره بمعاش قدره ٣,٠٠٠ جنيه له ولوريثه ، ولقب الشرف لزوجته التى أصبحت الآن البارونة شاتام . وقد رفض بت (حتى عام ١٧٦٦) النبالة لنفسه لأنه لو حصل عليها لأبعدته عن ساحة عراكه المحببة وهى مجلس العموم . وإذ كان قد أبدى احتقاره للمعاشات ، فقد انتقد بشدة على قبوله هذه الرواتب ، ولكنها كانت أقل مما كان يكسب ، وقد نال آخرون أكثر كثيراً منها مع أنهم كانوا يكسبون أقل منه كثيراً .

وفى ٢٦ مايو ١٧٦٢ اعتزل الدوق نيوكاسل منصبه بعد أن شغل مكاناً مرموقاً فى السياسة طوال خمسة وأربعين عاماً . وبعد ثلاثة أيام خلفه بيوت وزيراً أول . واتخذت الآن أهداف الملك الشاب شكلا ودفعاً . فرأى هو وبيوت أن من حق الملك أن يقرر الخطوط الكبرى للسياسة لا سيما فى الشئون الخارجية . أضف إلى ذلك أنه كان تواقاً إلى كسر سلطان بعض الأسر الغنية على الحكومة . وفى ١٧٦١ ، حث عضو قديم فى حزب الأحرار يدعى وليم بلتنى ، إيرل باث ، فى نبذة مغفل عن اسم كاتبها ، الملك على ألا يقنع « ظل الملكية ، بل يستعمل « امتيازاته القانونية » فى كبح جماح « الدعاوى غير القانونية للأوليجركية المتحزبة »[٦٤] .

وكانت الأغلبية فى مجلس العموم تذهب إلى أن على الملك أن يختار وزراءه من الزعماء المعترف بهم للحزب أو العصبة الفائزة فى الانتخابات . وأصر جورج على حقه الشرعى فى اختيار وزرائه دون اعتبار للحزب ، ودون قيود عليه إلا مسئوليته أمام الشعب . وكان الأحرار هم الذين دبروا ارتقاء ناخب هانوفر لعرش انجلتره ، وكان بعض المحافظين قد تفاوضوا مع الاستيوارتيين المنفيين . لذلك لم يكن بد من أن يقتصر جورج الأول والثانى فى اختيار وزرائهما على الأحرار ، وكان أكثر المحافظين قد اعتزلوا فى ضياعهم . ولكنهم فى ١٧٦٠ قبلوا الأسرة المالكة الجديدة ، وأقبلوا فى نفر كبير ليقدموا ولاءهم للملك البريطانى المولد .

ورحب بهم جورج ، ولم ير مبرراً لعدم تعيينه المحافظين الأكفاء كما يعين الأحرار الأكفاء فى المناصب الوزارية . واحتج الأحرار بأنه لوكان الملك حراً فى اختيار الوزراء وتقرير السياسة دون أن يكون مسئولا أمام البرلمان لكان هذا انتهاكاً لمرسوم الحقوق الصادر فى ١٦٨٩ ، ولصعدت سلطة الملك من جديد إلى المستوى الذى ادعاه تشارلز الأول ، ولبطل مفعول ثورتى ١٦٤٢ و ١٦٨٨ . ان للنظام الحزبى عيوبه ، ولكنه (فى رأى الزعماء) لا غنى عنه للحكومة المسئولة ، فهو يوفر لكل وزارة معارضة تراقبها ، وتنتقدها ، وتستطيع (إذا شاء الناخبون) أن تحل محلها رجالا مهيأين لتغيير اتجاه السياسة دون الإخلال باستقرار الدولة . وهكذا تكونت الخطوط لأول صراع كبير بين القوى فى الحكم الجديد .

وتحمل بيوت وطأة المعركة . وكان أكثر النقد يعنى الملك ، ولكنه لم يعنى أمه ، فاتهمتها الأهاجى الخفيفة الساخرة بأنها خليلة بيوت ، وأثار هذا التشهير الملك فغضب غضبة مضرية ، وعقد بيوت صلحاً منفرداً مع فرنسا ، ثم كف عن تقديم المعونة المالية لبروسيا ليكره فردريك على الإذعان ، فوصفه فردريك بالوغد الخسيس ، وواصل القتال . أما الشعب الانجليزى فرغم سروره لأن الحرب وضعت أوزارها إلا أنه ندد بالصلح لأنه أفرط فى اللين مع فرنسا المغلوبة ؛ وسخط بت عليه ، وتنبأ بأن فرنسا

التى خرجت من الحرب ببحريتها سليمة لم يمسها سوء ستستأنف الحرب على انجلتره عما قليل — وهو ما فعلته فى ١٧٧٨ . وصدق مجلس العموم على المعاهدة ، بأغلبية ٣١٩ ضد ٦٥ . واغتبطت أم جورج بانتصار الإرادة الملكية وقالت « ان ابنى الآن ملك على انجلتره حقاً وفعلا»(٦٦) .

كان الملك الجديد حتى الآن يشتهر بالنزاهة . ولكنه حين رأى الأحرار يشترون الأصوات البرلمانية ، ويستأجرون الصحفيين لمهاجمة سياساته ، صمم على أن يبزهم فى هذا المضمار . فسخر ماله وقوة رعايته لإغراء المؤلفين من أشباه سمولت بالدفاع عن أهداف الوزارة وتصرفاتها . ولعل بيوت كان يفكر فى أمثال هذه الخدمات حين أقنع الملك فى يوليو ١٧٦٢ بأن ينفح صموئيل جونس بمعاش ، ولم يخب ظنه فى الكاتب . ولكن ما من متشيع للوزير استطاع أن يضارع خطب جون ولكس اللاذعة الذكية ، أوهجائيات تشارلز تشرشل الضارية ، أو قدح « جونيوس » الغفل من التوقيع . « وظهرت الآن كل يوم ، نثراً وشعرا ، طعون فى البلاط فاقت فى جرأتها وغلها أى طعن نشر لسنوات كثيرة»(٦٧) .

وأخذ البرلمان نقود الملك وأعطاه أصواتاً ، ولكنه كره كبير وزرائه ، لأنه اسكتلندى لم يرق إلى مقام السلطة جزاء على خدمة طويلة لحزب من الأحزاب فى مجلس العموم . واشتد شعور الكراهية لاسكتلنده فى انجلتره التى لم تزل تذكر غزو ١٧٤٥ الاسكتلندى . ثم أن بيوت كان قد أغدق الغنائم السياسية على بنى جلدته : فعين روبرت آدم معمارياً للبلاط ، وآلن رمزى مصوراً للبلاط (متجاهلا رينولدز) ؛ وأجرى معاشاً على جون هيوم الكاتب المسرحى الاسكتلندى ، فى حين ضن على توماس جراى بكرسى الأستاذية . وأعربت جماهير لندن عن شعورها بشنوق جزمة عسكرية ثقيلة jackboot أو احراقها (كناية عن Bute) وبالهجوم على مركبة الوزير ، فكان يضطر إلى إخفاء وجهه حين يختلف إلى المسرح . ونفرت أهل الريف منه ضريبة فرضها على عصير التفاح (السيدر) ، فبات بيوت أبغض وزير وعاه التاريخ الانجليزى . فلما أن عجز عن التصدى لهذا السيل

الجارف ، وتحطم بدناً وروحاً ، وأدرك أنه لايصلح لمعارك السياسة ودسائسها ، استقال (٨ ابريل ١٧٦٣) بعد أقل من سنة وهو كبير وزراء الملك .

أما خلفه جورج جرنفل فعانى من خطوب ثلاثة : فقد هاجمه فى الصحف جون ولكس الذى لا يقهر (١٧٦٣ وما بعدها) ؛ وحصل على موافقة البرلمان (مارس ١٧٦٥) على قانون الدمغة الذى كان أول ما نفر المستعمرات الأمريكية ؛ وأصيب فى عهده جورج الثالث بأول نوبات جنونه . ذلك أن اخفاق بيوت واستقالته حطما أعصاب الملك وفلا عزيمته ، ولم يسبغ عليه زواجه أى سعادة ، وكان جرنفل معتداً برأيه إلى حد مؤلم ، لا بل يكاد يكون مسيطراً . ثم تماثل جورج للشفاء بعد قليل ، ولكنه لم يعد بعدها يشعر بأن فيه من العافية ما يكفى لمقاومة أولجركية الأحرار التى هيمنت على معظم البرلمان والصحافة . فلجأ إلى حل وسط ، ودعا المركيز روكنجهام — وهو من الأحرار — لتأليف وزارة جديدة .

وشرع المركيز بموافقة البرلمان خلال سنة عدة قوانين مهدئة ، ربما عملا باقتراحات أشار بها سكرتيره إدموند بيرك . فألغيت أو عدلت ضريبة الدبس (السيدر) ، وألغيت ضريبة الدمغة ، وأعان التجارة إبرام معاهدة مع روسيا ، وهدىء الهياج الذى نشب حول ولكس ؛ ويبدو أن هذا التشريع لم تسخر الرشوة لدفعه قدماً . أما الملك فقد ساءه إلغاء الضريبة ، والتنازلات التى قدمت لولكس ؛ وعليه ففى ١٢ يوليو ١٧٦٦ أقال وزارة روكنجهام ، وعرض النبالة على بت ، وطلب إليه أن يضطلع بالحكم . ووافق بت .

غير أن « نائب العموم العظيم » كانت صحته قد تضعضعت ، وكذلك عقله . وضحى الآن بما بقى له من شعبيته بقبوله لقب إيرل شاتام ، فتخلى بذلك عن مكانه فى مجلس العموم . وكان له فى هذا بعض العذر : فقد أحس بأنه أضعف من أن يثبت لتوترات مجلس العموم وصراعاته ، أما مجلس اللوردات فسيتاح له فيه فراغ أكثر وسيكون التوتر فيه أقل . واتخذ منصباً هادئاً نسبياً هو منصب وزير الخاتم الملكى ، وسمح لصديقه دوق جرافتن

أن يشغل منصب الرئيس الأعلى للخزانة ، وهو أبرز المناصب الوزارية اسمياً . على أن زملاء بت لاحظوا أنه يقرر السياسة دون أن يشاورهم أو رغم معارضتهم ، وقد تنفس كثيرون الصعداء حين ذهب إلى بات ملتمساً تهدئة آلام النقرس الذى يشكوه . وقد حقق هذا الهدف ولكن بعقاقير شوشت عقله . فلما عاد إلى لندن لم يكن فى حال تسمح له بالاهتمام بالسياسة . وفى أكتوبر ١٧٦٨ استقال ، وأصبح جرافتن كبيراً للوزراء .

فى فترة الفوضى السياسية هذه (١٧٦٦ — ٦٨) تكتل لفيف عرفوا بـ « أصدقاء الملك » ليدعموا أهداف الملك . فأرشدوا جورج فى توزيع الغنائم لقاء تأييد نائليها لسياسته ، واستخدموا كل وسيلة لانتخاب مرشحين وتقديم وزراء موالين للآراء الملكية . فلما تورط جرافتن فى مصاعب وأخطاء فاضحة ضاعفوا من ارتباكه حتى استقال (٢٧ يناير ١٧٧٠) . وفى ١٠ فبراير أحرزوا أعظم نصر لهم إذ بدأ فردريك نورث سنى خدمته الاثنى عشرة وزيراً للخزانة (وهو المعروف لنا باللورد نورث ، وإن لم يرث هذا اللقب إلا فى ١٧٩٠) .

كان نورث رجلا ضعيفاً وإن لم يكن شريراً . وإحساسه بالولاء والرحمة هو الذى أبقاه فى منصبه وأكسبه مكاناً غير كريم فى التاريخ . وقد ابتسم له الحظ لأنه كان ابن إيرل جلفورد ، فحظى بكل مزايا التعليم والاختلاط بالمجتمع الراقى ، وأصبح نائباً فى مجلس العموم ولما يجاوز الثانية والعشرين ، واحتفظ بمقعده فيه قرابة أربعين عاماً . واكتسب صداقة الكثيرين بفضل تواضعه ولطفه ودماثته وظرفه * ولكنه اتبع الجانب المحافظ فى ثبات غالى فيه حتى لم يسر أحداً سوى الملك . فقد أيد قانون الدمغة وطرد ولكس ، وواصل الحرب مع أمريكا (إلى مراحلها الأخيرة) ودافع عن سياسات جورج الثالث حتى وهو يشك فى حكمتها ، وعد نفسه عاملا للملك ،

---

* شكا خطيب من أن نورث ينام أثناء الخطبة ، فأجاب نورث بأن من الظلم أن يعاب عليه تناول دواء قدمه له السيد الموقر بنفسه . وطالب عضو غاضب برأسه فرد بأنه يسره أن يسلمه شريطة الايكره على أن يقبل بديلا رأس المضو(٦٨) .

لا عاملا للبرلمان فضلا عن أن يكون عاملا للشعب ؛ ويبدو أنه كان مخلصاً في اعتقاده أن للملك الحق الشرعي في اختيار وزرائه وتوجيه السياسة . وبفضل نورث ولباقته في سياسة مجلس العموم — وبفضل استخدام الأموال التي أقرها البرلمان — حكم جورج الثالث انجلتره طوال عقد من ذلك القرن ، وعن طريق عملاء نورث اشترى المقاعد والأصوات ، وباع المعاشات والمناصب ، وأعان الصحفيين بالمال ، وحاول أن يقيد الصحافة بالأغلال . وأنه لمحك لشجاعته وعناده أن تتطلب هزيمته تكتل جهود جون ولكس ، ر « جونيوس » ، ويبرك ، وفوكس ، وشريدان ، وفرانكلن ، وواشنطن ضده ليقهروه .

٤ — البرلمان ضد الشعب

نقرأ في يومية جبون بتاريخ ٢٣ سبتمبر ١٧٦٢ : « تناول الكولونيل ولكس الغداء معنا . . . ونادر أن ألتقيت في حياتي برفيق خير منه . فقد أوتي حيوية لا ينضب معينها وذكاء وروح فكاهة لا حد لهما ، وقدراً وافراً من المعرفة ، ولكنه كان ممعناً في الخلاعة والمجون مبدأ وممارسة على حد سواء : فخلقه معيب ، وحياته تلوثها كل الموبقات ، وحديثه طافح بالتجاديف والبذاءة ثم هو فخور معتز بهذه الأخلاق — لأن الخجل ضعف تغلب عليه منذ أمد بعيد . وقد أخبرنا هو نفسه أنه مصمم في فترة الانشقاق العام أن يصبح ثرياً »[٦٩] .

هذا رأي محافظ كان يقترع في صف الحكومة طوال الأعوام الثمانية التي كان فيها عضواً في مجلس العموم ، ولم يستطع أن يتعاطف بسهولة مع عدو سافر للبرلمان والملك ، فياض بالحيوية . . . على أن ولكس لوسئل لسلم بمعظم هذه التهم . ذلك أنه كان قد نبذ أخلاقيات المسيحية كما نبذ لاهوتها ، واستمتع بالجهر بمذهبه في اللذة أمام نواب يشاركونه أخلاقه ولكنهم يفزعون من صراحته .

كان جون ولكس ابنا لمقطر ملت فى كلاركنويل بشمالى لندن . تلقى تعليماً حسناً فى أكسفورد ولايدن ، كفى لإثارة دهشة جونسن من إلمامه بالآداب الكلاسيكية ومن تأدبه بـ « آداب السادة » [٧٠] فلما بلغ العشرين تزوج « سيدة تكبرنى مرة ونصفا » ، ولكنها « ذات ثراء عريض » [٧١] وكانت من جماعة المنشقين على الكنيسة الإنجليكانية ، تميل إلى التقوى المكتئبة ؛ فأقبل على الشراب والخليلات . وحوالى عام ١٧٥٧ انضم إلى السير فرانسيس داشوود ، وبب دودنجتن ، وجورج سلوين ، والشاعر تشارلز تشرشل ، وإيرل ساندوتش الرابع فى « ناد لنار الجحيم » يلتئم شمله فى دير مدمنهام البندكتى على ضفاف التيمز قرب مارلو . هناك راحوا وهم ينتحلون صفة « رهبان مدمنهام المجانين » يقلدون فى سخرية الطقوس الكاثوليكية بإقامة « قداس أسود » للشيطان ، ويطاقون العنان لميولهم التجديفية الشهوانية [٧٢] .

وأنتخب ولكس نائباً للبرلمان عن دائرة ايلزبرى (١٧٥٧) بفضل نفوذ رفاقه وبإنفاق ٧٠٠٠ جنيه . وانضم أولا لبت الأب ، ثم لخصوم بيوت بعد عام ١٧٦٠ . ولما كان بيوت يعين بالمال مجلة سمولت « البريطانى » ، فقد بدأ ولكس ، مستعيناً بتشرشل ، فى يونيو ١٧٦٢ اصدار مجلة أسبوعية معارضة سماها « بريطانى الشمال » اكتسبت قراء كثيرين بفضل حيوية أسلوبها وخفته ، وضراوة هجماتها على الوزارة . وفى عدد منها نفى فى إسهاب — أى أنه أذاع — الشائعة التى أرجفت بأن بيوت خالل أم الملك . وفى العدد ٤٥ (٢٣ أبريل ١٧٦٣) ندد ببيوت لأنه خرق اتفاق انجلتره مع بروسيا بإبرامه صلحاً منفرداً مع فرنسا ، وبادعائه ، فى « خطاب العرش » الذى ألقاه الوزير باسم الملك ، أن هذه المعاهدة باركها فردريك الأكبر .

« أن هذا الأسبوع قد أعطى الجمهور مثالا على وقاحة الوزارة — هو أشد ما حاولته وزارة من قبل تسيباً واستهتاراً . . . على البشرية . ذلك أن « خطاب الوزير » الذى ألقاه الثلاثاء الماضى لانظير له فى سجلات تاريخ هذا البلد . ولست أدرى هل الدجل والخداع أعظم على الملك أم على الأمة . فكل صديق لهذا البلد لابد يحزن لأن ملكاً أوتى هذا العدد الكبير من الخلال

العظيمة المحببة . . . يمكن حمله على التصديق باسمه المقدس على أبغض القرارات ، وعلى أشد التصريحات العامة حيفا . . . وأنا واثق من أن جميع الأجانب ، لا سيما ملك بروسيا ، سينظرون إلى الوزير نظرة الازدراء والاشمئزاز ، فقد جعل مليكنا يصرح بالآتى : « لقد تحققت كل توقعاتى تحققاً كاملا بفضل النتائج الطيبة التى جناها حلفاء تاجى المختلفون من المعاهدة النهائية وقد أقتنعت الدول المشتبكة فى حرب مع أخى الفاضل ملك بروسيا بالموافقة على شروط التسوية التى وافق عليها ذلك الملك العظيم » والمغالطة المخزية فى هذه العبارة كلها ظاهرة للناس جميعاً ، لأنه من المعروف أن ملك بروسيا . . . قد خذله رئيس وزراء انجلتره الاسكتلندى خذلاناً خسيساً . . . أما عن تصديق البرلمان « تصديقاً كلياً » الذى هو موضع فخر ينطوى على غرور شديد ، فإن العالم يعرف كيف تم الحصول عليه . والدين الكبير على « القائمة المدنية » . . . يعلن بوضوح تام صفقات الشتاء»(٧٣) .

ومع أن ولكس كان قد فسر « خطاب الملك » على أنه فى الحقيقة خطاب بيوت ، إلا أن جورج الثالث فهم المقالة على أنها إهانة شخصية ، وأمر اللوردين هاليفاكس واجرمونت ، وزيرى الدولة آنئذ — بالقبض على جميع الأشخاص الضالعين فى نشر العدد ٤٥ من « بريطانى الشمال » . فأصدرا أمراً عاماً بالاعتقال — أى أمراً لا يسمى الأشخاص الذين يعتقلون ، وبناء على عباراته الغامضة زج فى السجن تسعة وأربعون شخصياً منهم ولكس (٣٠ ابريل ١٧٦٣) ، رغم دعوى الحصانة بوصفه نائباً فى البرلمان ، ووضع طابع المجلة واسمه وليمز فى المشهرة ، ولكن حشداً من الناس هتفوا له شهيداً وجمعوا مائتى جنيه لإعانته . وطلب ولكس إلى محكمة الدعاوى العامة أمراً قضائياً من أوامر « هابياس كوربس » ، وحصل عليه ، ودافع عن قضيته ، ونال من قاضى القضاه تشارلز برات (وكان صديقاً لبت) أمراً بإطلاق سراحه تأسيساً على أن اعتقاله فيه انتهاك لحق عضو البرلمان ، ورفع ولكس الدعوى على هاليفاكس وآخرين للقبض غير القانونى والأضرار بماله ، وحصل على تعويض قدره ٥٠٠٠ جنيه وأنهت إدانة برات

للتفويضات العامة ذلك الاستعمال السيىء للسلطة الذى أبغضه البريطانيون بغض الفرنسيين لأوامر القبض المختومة .

وشاء ولكس أن يعاند القدر ، فاشترك مع توماس بوتر (ابن رئيس أساقفة كنتربرى) فى تأليف « مقال عن المرأة » وهو معارضة شعرية ساخرة لقصيدة بوب « مقال عن الإنسان (الرجل) » . وكان خليطاً من البذاءة والتجديف ، مزوداً بحواش تنبىء بعلم الشاعر الواسع وتنسج على المنوال ذاته ، ونسب المقال إلى الأسقف وليم وربرتن ، الذى كان قد أضاف هوامش لقصيدة بوب . وطبع المقال الصغير فى مطبعة ولكس فى بيته ، لكنه لم ينشر ، غير أن ثلاثة عشرة نسخة طبعت خصيصاً لبضعة أصدقاء ، وحصل وزراء الملك على تجارب الطبع ، وأقنعوا إيرل ساندوتش بأن يقرأها على مجلس اللوردات ، ففعل الإيرل (١٥ نوفمبر) ، الأمر الذى أضحك الأشراف ، وكانوا عليمين بما اشتهر به ساندوتش من خلاعة وتهتك . ويخبرنا وليول بأنهم « لم يستطيعوا الاحتفاظ برزانتهم » وساندوتش ماض فى القراءة ، ولكنهم وافقوا على أن القصيدة « قذف فاضح بذىء فاسق » ، وطلبوا إلى الملك أن يقدم ولكس للمحاكمة بتهمة التجديف . وحين أخبر ساندوتش ولكس بأنه سيموت إما شنقاً أو من مرض سرى ، أجاب « ذلك يامولاى اللورد رهن بمن أعانق — مبادئك أم خليلتك »[٧٥] .

وفى ذلك اليوم ذاته — يوم ١٥ نوفمبر — قام ولكس فى مجلس العموم ليسجل شكوى من إهدار حقه البرلمانى بالقبض عليه . ولكن المجلس صوت ضده ، وأمر البرلمان الجلاد بأن يحرق علناً العدد ٤٥ من « بريطانى الشمال» . وفى اليوم السابع عشر تحدى صموئيل مارتن ولكس للمبارزة ، وكان قد سبه فى ذلك العدد . فالتقيا فى هايد بارك ، وجرح ولكس جرحاً خطيراً ، وألزم الفراش شهراً . وأدان أهالى لندن مارتن باعتباره قاتلا مأجوراً ، وأحدثوا شغباً حين حاول الجلاد أن يحرق العدد ٤٥ ، وأصبح الهتافان « ولكس والحرية » و « العدد الخامس والأربعون » شعارين على تمرد شعبى صاعد ضد الملك والبرلمان[٧٦] . ثم حاول اسكتلندى مسعور قتل ولكس ،

فرحل إلى فرنسا (٢٦ ديسمبر) . وفى ١٩ يناير ١٧٦٤ طرد رسمياً من البرلمان . وفى ٢١ فبراير صدر ضده حكم فى محكمة « كنجز بنش » بأنه مذنب بإعادة طبع العدد ٤٥ وبطبع « مقال عن المرأة » ، ودعى للمثول وتلقى الحكم عليه ، فلم يحضر ؛ وفى أول نوفمبر أعلن أنه خارج على القانون .

وظل ولكس أربع سنوات شريداً فى فرنسا وإيطاليا يخشى أن يسجن سجناً مؤبداً إن عاد إلى انجلتره . وفى روما التقى مراراً بفنكلمان ، وفى نابلى قابل بوزويل الذى وجده رفيقاً مسليا : « ان سخرياته المرحة الحية فى المواضيع الأخلاقية حركت روحى المعنوية حركة ليست غير سارة »(٧٧) . وفى طريقه عودا إلى باريس زار ولكس فولتير فى فرنيه ، وسحر أظرف رجل فى أوربا بظرفه وخفة روحه .

ثم فتح رجوع الأحرار إلى السلطة بزعامة وكنجهام وجرافتن لوكس باب الأمل فى العفو عنه . وتلقى تأكيدات سرية بأنه لن يمس بسوء إذا لزم الصمت . فعاد إلى انجلتره (١٧٦٨) وأذاع من لندن ترشيحه للبرلمان . فلما أن خسر تلك المعركة ، التمس انتخابه للبرلمان من مدلسكس ، وحصل على أغلبية كبيرة بعد حملة صاخبة ؛ وكانت تلك المقاطعة التى تحول أكثرها حضراً (وهى تضم الآن شمال غربى لندن) معروفة بميولها الراديكالية وعدائها للرأسمالية الصاعدة . وفى ٢٠ ابريل مثل ولكس أمام المحكمة متوقعاً إلغاء الحكم بخروجه على القانون ؛ وألغى الحكم ؛ ولكن حكم عليه بغرامة قدرها ألف جنيه وبالسجن اثنين وعشرين شهراً . فأنقذه حشد غاضب من ضباط الشرطة وحملوه فى موكب نصر طافوا به شوارع لندن . وبعد أن هرب من المعجبين ، سلم نفسه للسجن فى سانت جورجز فيلدز . وتجمع الغوغاء هناك فى ١٠ مايو وأرادوا اطلاق سراحه ثانية . فأطلق الجند النار على مثيرى الشغب ، وقتل منهم خمسة وجرح خمسة عشر .

وفى ٤ فبراير ١٧٦٩ طرده مجلس العموم ثانية ، فانتخبته دائرة مدلسكس ثانية (١٦ فبراير) ، وطرد من جديد ، فعادت مدلسكس وانتخبته

١٣ابريل)، هذه المرة بأغلبية ١,١٤٣ صوتاً ضد٢٩٦لهنرى لوتريل؛ وأعطى البرلمان المقعد للوتريل على أساس أن ولكس بعد أن طرد من البرلمان فقد أهليته شرعاً للنيابة فى دورة ذلك البرلمان . وهوجم لوتريل وهو يغادر مجلس العموم ؛ ولم يجرؤ على الظهور فى الشوارع(٧٨) . وأرسلت سبع عشرة مقاطعة ومدن كثيرة خطابات موجهة إلى العرش تشكو من أن حقوق الملاك الأحرار فى اختيار ممثليهم فى مجلس العموم قد انتهكت انتهاكاً صارخاً . أما الملك الذى كان قد أيد الطرد بقوة فقد تجاهل الالتماسات ، وقال عضو يدعى الكولونيل اسحاق باريه فى البرلمان أن تجاهل الالتماسات « قد يعلم الشعب التفكير فى الاغتيال »(٧٩) * . وخلع جون هورن توك ، الذى أسلم إيمانه لسخر فولتير ، ثوبه الدينى وصرح بعد إقصاء ولكس مراراً بأنه سيصبغ رداءه (رداء القساوسة) الأسود بالحمرة .

وتزعم توك تنظيم « جماعة المؤيدين لملتمس الحقوق ، (١٧٦٩) التى كان هدفها العاجل اطلاق سراح ولكس ، وأداء ديونه ، ورده إلى البرلمان . ونشرت الجماعة الدعوة فى محافل عامة لحل البرلمان الراهن لفساده الذى لا يرجى صلاحه ، ولعدم استجابته للإرادة العامة ؛ وطالبت ببرلمانات سنوية تنتخب بالتصويت العام للذكور البالغين ، وبمسئولية الوزارات أمام البرلمان فى سياستها ومصروفاتها(٨٠). ونادت بأن على كل مرشح أن يقسم اليمين بألا يقبل أى ضرب من ضروب الرشوة ، ولا أى وظيفة أو معاش أو مكافأة أخرى من التاج ، وبأن على كل عضو أن يدافع عن آراء ناخبى دائرته ولو ناقضت آراءه ، وبضرورة رفع المظالم عن ايرلنده ، وبأن يكون للمستعمرات الأمريكية وحدها حق فرض الضرائب على شعبها(٨١) .

وفى يوليو ١٧٦٩ ، رفع وليم تكفورد عمدة لندن وكبار موظفيها الرسميين إلى الملك خطاباً يلوم مسلك وزرائه لأنه هادم للدستور الذى أعطى بموجبه بيت هانوفر عرش انجلتره . وفى ١٤ مايو ١٧٧٠ أرسلوا إلى الملك احتجاجاً استخدم لغة الثورة : « ان أغلبية أعضاء مجلس العموم — الواقعين

---

* سميت مدينة ولكس — باريه فى بنسلفانيا باسم ولكس وباريد اللذين ناصرا قضية المستعمرات فى البرلمان بقوة .

تحت التأثير الخفى والخبيث الذى أحبط كل النوايا الحسنة وأوحى بكل النوايا السيئة فى جميع الحكومات المتعاقبة — هؤلاء حرموا شعبكم من أعز حقوقهم . لقد اقترفوا عملا أفدح تدميراً فى عواقبه من فرض تشارلز الأول ضريبة السفن ، أو سلطة منح المعاشات التى ادعاها جيمس الثانى لنفسه »(٨٢) .

وقد ناشد الخطاب الملك أن يعيد « الحكومة الدستورية . . . وأن تقصى أولئك الوزراء الأشرار عن مجالسك إلى الأبد »(٨٣) وأن يحل البرلمان الحالى . أما الملك الخنق فقد صاح ويده على سيفه « دون ذلك سيفى هذا »(٨٤) . وبدت لندن لا باريس قاب قوسين من الثورة فى ١٧٧٠ .

فى هذه الدوامة الملتهبة من دوامات السياسة قذف « جونيوس » بأشد الرسائل إثارة للفتنة فى تاريخ انجلتره . وقد أفلح فى إخفاء هويته حتى عن ناشريه إخفاءاً تاماً ، حتى أنه إلى يومنا هذا لا يعرف أحد من هو ، وان حزر معظمهم أنه السر فيليب فرانسيس ، الذى سنلتقى به الخصم اللدود لوارن هيستنجز . وكان المؤلف قد وقع بعض رسائله باسم « لوشس » ، وبعضها باسم « بروتس » ، أما الآن فقد انتحل الاسم الأوسط « لوشس جونيوس بروتس ؛ الذى يقول ليڤى انه خلع ملكاً (حوالى ٥١٠ ق.م.) وأسس الجمهورية الرومانية . وتدل فحولة لغة هذه الرسائل على أن « جونيوس » أوتى تعليم السادة وإن لم يؤت حسن أدبهم . والراجح أنه كان غنياً ، لأنه لم يتقاض أجراً على رسائله التى وسعت قوتها ونقدها اللاذع من توزيع صحيفة « المعلن العام » توسيعاً غل الربح الوفير ، وهى الصحيفة التى ظهرت فيها من ٢١ نوفمبر ١٧٦٨ إلى ٢١ يناير ١٧٧٢ .

وفى مقاله « إهداء للأمة الانجليزية » الذى صدر به المؤلف « رسائل جونيوس » (١٧٧٢) أعلن هدفه وهو « تأكيد حرية الانتخاب ، والدفاع عن حقكم أنتم دون غيركم فى اختيار ممثليكم « واتخذ نقطة انطلاقه اقصاء ولكس المتكرر ، واعتقال كل من له صلة بالعدد ٤٥ من « بريطانى الشمال» بأمر اعتقال عام. « أن حرية الصحافة هى الحصن المنيع لجميع الحقوق المدنية والسياسية والدينية للرجل الانجليزى ، وحق المحلفين . . . جزء أساسى من

دستورنا » ومن هذه الزاوية انتقد المؤلف أسس الحكومة البريطانية : « ان سلطة الملك ، واللوردات ، ونواب العموم ، ليست سلطة تعسفية . فهم ليسوا إلا الأمناء على التركة لا مالكيها . والملكية المطلقة قائمة فينا نحن . . . وأنا موقن بأنكم ان تتركوا لمشيئة سبعمائة شخص ، أفسدهم التاج على نحو مفضوح ، الفصل فى مستقبل سبعة ملايين من نظرائهم ، أيكونون أحراراً أم عبيداً »(٨٥) .

ومضى جونيوس يتهم حكومة جرافتن (١٧٦٨ — ٧٠) ببيع المناصب وإفساد البرلمان بالانعامات والرشا . هنا أصبح الهجوم مباشراً وبلغ من الاحتدام حداً يشعر بأنه تصميم على الانتقام لإساءة أو إهانة شخصية .

« تقدم أيها الوزير الفاضل وقل للعالم بأى نفوذ زكى مستر هاين لمثل هذه الإمارة الخارقة على رضى جلالته ؟ وماذا كان ثمن الامتياز الذى اشتراه ؟ . . . انك تعرض نخسة الرعاية الملكية للمزاد . . . أو تظن أن فى الإمكان أن تفلت هذه الكبائر دون اتهام ؟ أنها حقاً مصلحتك إلى الدرجة القصوى أن تحتفظ بمجلس العموم الحالى . فهم إذ باعوا الأمة جملة ، سيحمونك ولا ريب فى التجزئة ، لأنهم وهم يناصرون جرائمك يرعون أيضاً جرائمهم هم »(٨٦) .

واستمر الهجوم بعد استقالة جرافتن بزمن طويل ، كما نقرأ فى الرسالة المؤرخة ٢٢ يونيو ١٧٧١ .

لست أستطيع بأى مظهر مهذب من مظاهر اللياقة أن أصفك بأنك أنذل وأخس رجل فى المملكة . لا ياسيدى ، فلست أحسبك كذلك . فسيكون لك منافس خطر فى ذلك الضرب من الشهرة . . . مادام هناك رجل واحد حى يحسبك جديراً بثقته ، صالحاً لأن يوكل إليك أى قسط فى حكومته .»

وبدا أن هذا وصف لجورج الثالث ذاته بأنه « أخس رجل فى المملكة » وكان جونيوس قد عمد من قبل فى الرسالة الخامسة والثلاثين إلى مهاجمة الملك « بإباء وحزم ، ولكن دون احترام » : « سيدى ، ان الخطب الذى

منيت به حياتك . . . أنك لم تكن لتلم قط بلغة الحقيقة حتى سمعتها فى شكاوى شعبك . على أن الوقت لم يفت لتصحيح خطأ تعليمك » . ونصح جونيوس جورج بأن يقيل وزراءه المحافظين ، ويسمح لولكس بأن يشغل المقعد الذى أنتخب له . « أن على الملك ان كان يفتخر بسلامة حقه فى التاج أن يتذكر أنه اكتسب بثورة . وأنه قد يضيع بأخرى»(٨٧) .

وقبض على هنرى وودفول الذى نشر هذه الرسالة فى صحيفة « المعلن العام » بتهمة القذف المحرض على الفتنة . ورفض المحلفون إدانته وهم يعكسون مشاعر الطبقة الوسطى ، فأفرج عنه بعد دفع المصاريف . وكان جونيوس قد بلغ الآن قمة تهوره وقوته . ولكن الملك صمد للهجوم ، ودعم مركزه بتعيينه لرياسة الوزارة اللورد نورث اللطيف الثابت الجأش . وواصل جونيوس رسائله حتى ١٧٧٢ ، ثم ترك ساحة القتال . ويلاحظ أنه فى ١٧٧٢ ترك السر فيليب فرانسيس وزارة الحربية (التى كان جونيوس قد أظهر معرفة وثيقة بشئونها) ورحل إلى الهند .

وتنتمى الرسائل إلى التاريخ الأدبى لانجلتره كما تنتمى إلى تاريخها السياسى ، ذلك أنها مثال حى على الأسلوب الذى كان فى قدرة الكثير من رجال السياسة البريطانيين أن يرتقعوا أو يتدنأوا إليه حين يلهبهم الغضب ويحميهم التخفى وراء الأسماء المستعارة . فهنا انجليزية رفيعة اختلطت بالسب ، ولكن السب ذاته آية فى الطعن المرهف . أو الإجرام الحاد . ولست تجد هنا شفقة ، ولا سماحة ، ولا تفكيراً فى أن الحزب الذى ينتمى إليه رامى الاتهام يشارك المتهم خطيئته وذنبه . ونحن نتعاطف مع السر وليم دراير الذى كتب يقول رداً على رسالة جونيوس المؤرخة ٢١ يناير ١٧٦٩ « أن المملكة تشغى بعدد غفير من اللصوص المجرمين الذين يسطون على خلق الأفراد وفضيلتهم بحيث لم يعد إنسان شريف واحد فى مأمن ، لاسيما لأن هؤلاء القتلة الحقراء الجبناء يطعنون فى الظلام دون أن تكون لديهم الشجاعة للتوقيع بأسمائهم الحقيقية على كتاباتهم الشريرة الحقودة »(٨٨) .

وقد تميز تحرك الصحافة البريطانية صوب حرية ونفوذ متعاظمين بصراع آخر فى هذه السنوات . ذلك أن بعض الجرائد بدأت حوالى ١٧٦٨ فى طبع تقارير عن الخطب الكبرى التى تلقى فى البرلمان . وكان أكثر هذه التقارير متحيزاً وغير دقيق ، وبعضها وهمياً ، وبعضها محشواً بالبذاءات . وفى فبراير ١٧٧١ شكا الكولونيل جورج أونسلو إلى مجلس العموم من أن مجلة أشارت إليه بعبارة « الوغد الحقير » و « ذلك الحشرة التافهة الخسيسة» فأمر المجلس فى ١٢ مارس بالقبض على الطابعين . فقاوموا ، وقبضوا على من أرادوا اعتقالهم وأتوابهم إلى عضوين فى البلدية (أحدهما ولكس) وبراس كروبتى عمدة لندن . وأبطل العمدة محاولة اعتقال الطابعين بحجة أن مراسيم المدينة تحظر اعتقال لندنى إلا بناء على أمر اعتقال يصدره أحد قضاة المدينة . فأمر البرلمان بسجن العمدة فى برج لندن ، ولكن جماهير العامة هبوا يؤيدونه ، وهاجموا مركبات النواب ، وهددوا الوزراء ، وصفروا للملك استهزاء ، ثم أغاروا على مجلس النواب . فأطلق سراح العمدة ، وهتف له جمع غفير . واستأنفت الصحف تقاريرها عن المناقشات البرلمانية . وكف البرلمان عن توجيه الاتهام للطابعين . وفى ١٧٧٤ بدأ لوك هانسارد بموافقة البرلمان ينشر فوراً وبدقة يوميات مجلس العموم ، وواصل نشرها حتى وفاته فى ١٨٢٨ .

وقد أثر الانتصار التاريخى الذى أحرزته الصحافة البريطانية فى طابع المناقشات البرلمانية ، وأسهم فى جعل النصف الثانى من القرن الثامن عشر العصر الذهبى للبلاغة الانجليزية . وأصبح الخطباء أشد حذراً ، وربما أكثر رغبة فى الإثارة ، حين شعروا أن الناس يستمعون إليهم فى طول الجزر البريطانية وعرضها . وغدا بعض التقدم صوب الديمقراطية أمراً لا مفر منه بعد أن اتسع انتشار الإعلام والفكر السياسيين ، ووجدت طبقة رجال الأعمال ، والمجتمع المفكر ، والراديكاليون الصاعدون ، فى الصحافة صوتاً ازداد جرأة وفاعلية زيادة مطردة ، حتى قهر الملكية ذاتها . واستطاع الناخبون أن يعرفوا الآن إلى أى حد أحسن نوابهم الدفاع عنهم وعن مصالحهم فى وضع القوانين وإلغائها . لقد استمر الفساد ولكنه تقلص ، لأنه كان فى الإمكان فضحه بجهر أكثر . وغدت الصحافة سلطة ثالثة قادرة أحياناً على حفظ التوازن بين الطبقات فى الأمة أو فى الأحزاب فى البرلمان . وأصبح للرجال القادرين على شراء الصحف أو الهيمنة عليها قوة تعدل قوة الوزراء .

على أن الحرية الجديدة كمعظم الحريات أسيء استعمالها مراراً ، فباتت أحياناً أداة تسخرها أهداف أشد أنانية وتحزباً ، ومعارضة أشد سوقية وعنفاً ، من أى أهداف أو معارضة ظهرت من قبل فى البرلمان ، عندها استحقت النعت الذى نعتها به شاتام — « الفاجرة المرخصة »(٨٩) وكان إلزاماً أن يؤديها هى الأخرى صوت رابع هو الرأى العام ، الذى كانت الصحافة مع ذلك جزئياً مصدره ، وفى حالات كثيرة مضللة ، وأحياناً صوته . وبدأ الرجال والنساء المجردون من الألقاب يجهرون بآرائهم فى السياسة وأساليب الحكم بعد أن تسلحوا بمعرفة أوسع ، وتجمعوا فى محافل عامة . ونافست مناقشاتهم بين الحين والحين مناقشات البرلمان أثراً فى التاريخ . واستطاع الآن المال أن يطالب بحق الحكم كشرف الأصل سواء بسواء ، وبين الفريقين المتصارعين يسمع صوت الشعب بين الحين والحين .

أفرج عن ولكس فى ١٧ ابريل ١٧٧٠ ، فأضيئت بيوت كثيرة كأنما تحتفل بعيد ، وعلق العمدة على منزله لافتة تحمل كلمة « الحرية » فى حروف ارتفاعها ثلاث أقدام (٩٠) . ولم يلبث ولكس أن انتخب عضواً فى البلدية ثم عمدة ، وفى ١٧٧٤ انتخبته مد لسكس مرة أخرى للبرلمان . ولم يجرؤ النواب الآن على أن يحرموه مقعده ، فاحتفظ به طوال الانتخابات حتى ١٧٩٠ . وتزعم لفيفاً صغيراً من « الراديكاليين » فى البرلمان ، طالبوا بالإصلاح البرلمانى وبإعطاء « الطبقات الدنيا » حق التصويت .

« ينبغى فى رأيى أن يتاح لكل عامل حر فى هذه المملكة حق تمثيله فى البرلمان وينبغى بتر دوائر الحضر الحقيرة التافهة ، التى نصر على وصفها بأنها الجزء العفن فى دستورنا ، وأن يسمح للمدن التجارية الغنية الأهلة بالسكان — مثل برمنجهام وما نشستر وشفيلد وليدز وغيرها — بإرسال نوابها لمجلس الأمة العظيم . . . أريد ياسيدى برلماناً انجليزياً يعبر عن الإحساس الحر ، غير المتحيز ، لسواد الشعب الانجليزى »(٩١) .

وقد انتظر البرلمان ستة وخمسين عاماً لتقبل هذه الإصلاحات .

ورفض ولكس أن يرشح نفسه للانتخاب فى ١٧٩٠ ، ثم اعتزل الحياة العامة . ومات فى ١٧٩٧ وقد بلغ السبعين ، فقيراً كما ولد ، لأنه كان شديد الأمانة فى جميع مناصبه (٩٢) .

٥ — انجلترة ضد أمريكا

فى ١٧٥٠ بلغ سكان المستعمرات الإنجليزية فى أمريكا الشمالية قرابة ١,٧٥٠,٠٠٠ نسمة، أما سكان انجلترة وويلز فكانوا نحو ٦,١٤٠,٠٠٠ (٩٣) ولما كان معدل النمو فى المستعمرات أعلى بكثير منه فى الوطن الأم، فإن المسألة لم تكن إلا مسألة وقت حتى يتمرد الإبن على أبيه . وكان مونتسكيو قد تنبأ بأن هذا سيحدث فى ١٧٣٠، بل إنه تنبأ بالضبط بأن الانفصال ستسببه القيـــود المفروضة على التجارة الأمريكية . وحوالى ١٧٤٧ تنبأ المركيز دارجنسن بأن المستعمرات ستثور على انجلترة وتكون جمهورية وتصبح إحدى الدرل العظمى . وبعد أن انتزعت انجلتره كندا من فرنسا فى حرب السنين السبع بقليل قال فرجين لرجال انجليزى: « ستندم انجلترا سريعا على أنها أزالت الـــكابح الوحيد الذى يستطيع أن يبقى على خوف مستعمراتها . فهى لم تعد فى حاجة لحمايتها ، وستطالب انجلترة المستعمرات بالمساهمة فى الأعباء التى عملت على إثقالها بها، وسترد المستعمرات بالقضاء على كل تبعية لانجلتره » (٩٤) .

وكان التاج البريطانى يدعى سلطة نقض القوانين التى توافق عليها مجالس المستعمرات . ولم يلجأ التاج كثيرا لاستعمال تلك السلطة، ولكن حين وافق مجلس كارولينا الجنوبية على قانون يفرض ضريبة باهظة على استيراد العبيد، « لشعوره بالخطر الاجتماعى والسياسى العظيم الناجم عن تكاثر العبيد الهائل فى المستعمرة » ألغى التاج القانون لأن « تجارة العبيـــد من أربح فروع التجارة الإنجليزية » (٩٥) أما فى الشئون الاقتصادية فقد ادعى البرلمان حق التشريع للإمبراطورية البريطانية كلها، وكانت قوانينه عادة تحابى الوطن الأم على حساب المستعمرات . وكان هدفه جعل أمريكا مصـــدراً للسلع التى لا تنتج بسهولة فى انجلتره ، وسـوقا للمصنوعات البريطانية (٩٦) . وقد ثبط نمو صناعات المستعمرات التى ستنافس صناعات انجلتره فحظر على سكان المستعمرات صناعة الأقمشة ، والقبعات ، والبضائع الجلدية ، والمنتجات الحديدية (٩٧) . وهكذا أعلن ايرل شاتام ، الذى كان فيما خلا هذا كبير

الورد للمستعمرات ، أنه ان يسمح بأن يضع مسمار واحد فى أمريكا دون إذن البرلمان (٩٨) . ومنعت المستعمرات من إنشاء أفران الصلب أو مصانع القاطرات .

وفرضت قيود عديدة على التجار الأمريكيين فهم لا يستطيعون شحن البضائع إلا فى السفن الإنجليزية ، ولا بيع التبغ والقطن والحرير والبن والسكر والأرز وكثير غيرها من السلع إلا للممتلكات البريطانية ، ولا استيراد البضائع من القارة الأوروبية إلا بعد أن ترسى على ساحل انجلتره ، وبعد أن تدفع مكس الميناء ، ثم تنقل إلى سفن بريطانية . وحماية لتصدير المصنوعات الصوفية الإنجليزية إلى المستعمرات الأمريكية ، حرم على تجار المستعمرات بيع مصنوعات المستعمرات الصوفية خارج المستعمرة التى أنتجتها(٩٩) . وفرض البرلمان ضريبة باهظة (١٧٣٣) على واردات أمريكا من السكر أوالدبس (المولاس) المجلوبة من أى مصدر غير المصادر البريطانية . وتفادى المستعمرون لا سيما فى مساتشوستس بعض هذه اللوائح بالتهريب ، وببيع الغلات الأمريكية خفية للأمم الأجنبية ؛ وحتى للفرنسيين أثناء حرب السنين السبع . ولم يمتثل لشرط المرور بالثغور الإنجليزية إلا عشرة فى المائة أونحوه من كميات الشاى التى تستورد سنـــويا للمستعمرات الأمريكية ؛ وجملتها ١٫٥٠٠٫٠٠٠ رطل . وكان قدر كبير من الوسكى الذى تنتجه معامل تقطير مساتشوستس فى ١٧٥٠ ، وعددها ثلاثة وستون ، يستعمل السكر والمولاس المهربين إليها من جزر الهند الغربية الفرنسية (١٠١) .

وتبريرا لهذه القيود قال البريطانيون أن الأمم الأوربية الأخرى فوضت نظيرها على مستعمراتها ، حماية لأهلها أو مكافأة لهم ، وأن الغلات الأمريكية تتمتع باحتكار فعلى للسوق الإنجليزية بفضل إعفائها من رسوم الاستيراد ، وأن انجلتره جديرة ببعض العائد الاقتصادى نظير تكاليف الحماية التى وفرتها بحريتها لسفن المستعمرات ، وجيوشها للمستعمرين ضد الفرنسيين والهنود فى أمريكا . وكان طرد القوة الفرنسية من كندا والقوة الأسبانية من فلوريدا قد حرر الإنجليز من أخطار طالما هددتهم ، ومن ثم شعرت انجلتره أن لها

الحق فى أن تطلب إلى أمريكا أن تعينها على سداد الدين الباهظ — البالغ ١٤٠٫٠٠٠٫٠٠٠ جنية — الذى استدانته بريطانيا العظمى فى حرب السنين السبع . ورد المستعمرون بأنهم قدموا عشرين ألف جندى لتلك الحرب ، وأنهم هم أنفسهم اقترضوا دينا بلغ ٢٫٥٠٠٫٠٠٠ جنيه .

على أية حال قررت انجلتره أن تفرض الضرائب على المستعمرين . فى مارس ١٧٦٣ اقترح جرنفل على البرلمان المطالبة بلصق طابع دمغة على جميع مايصدر فى المستعمرات من وثائق قانونية ، ومستندات ، ودبلومات ، وورق لعب ، وكمبيالات ، وعقود ، ورهون ، وبوالص تأمين ، وجرائد ، ويقتضى دفع رسم عن طابع الدمغة للحكومة البريطانية . وأشار باترك هنرى فى فرجينيا ، وصموئيل آدمز فى مساتشوستش ، برفض هذه الضريبة بحجة أن الإنجليز بحكم تقاليدهم الموروثة — المجنا كارتا ، والعصيان الكبير لتشارلز الأول ، و« ملتمس الحقوق — لايحق فرض ضريبة عليهم إلا بموافقتهم أو بموافقة ممثليهم الشرعيين . فكيف يتأتى إذن أن تفرض على المستعمرين الإنجليز ضريبة من برلمان ليس لهم فيه ممثلون ؟ ورد البريطانيون بأن صعوبات السفر والمواصلات تجعل تمثيل الأمريكيين فى البرلمان أمرا غير ممكن عمليا ، وقالوا أن الملايين من الإنجليز البالغين ظلوا قرونا يقبلون فى ولاء أن يفرض البرلمان الضرائب عليهم رغم أنهم لم يكن لهم صوت فى انتخابه ، وقد أحسوا بما ينبغى أن يحس به الأمريكيون — وهو أنهم ممثلون فعلا فى البرلمان ، لأن أعضاءه يعدون أنفسهم ممثلين للامبراطورية البريطانية كلها .

غير أن المستعمرين لم يقتنعوا . وإذا كان البرلمان قد احتفظ بسلطة فرض الضرائب مرتكزا للهيمنة على الملك ، فإن المستعمرات دافعت عن حقها دون سواها فى فرض الضرائب على ذواتها بديلا وحيدا للظلم المالى يقع عليهم من رجال لم يروهم قط ولا وطئت أقدامهم قط التراب الأمريكى . وتهرب المحامون من شرط استعمال الوثائق المدموغة ، ووضعت بعض الصحف صورة جمجمة ميت فى المكان الذى يفترض أن تظهر عليه الدمغة ، وبدأ الأمريكيون يقاطعون البضائع البريطانية ، وألغى التجار طلباتهم من المنتجات

البريطانية . ورفض بعضهم سداد ديونهم لانجلترة حتى يلغى قانون الدمغة[١٠٢] . وأخذت عذارى المستعمرات العهد على أنفسهن بألا يقبلن خطابا لا يندون بقانون الدمغة [١٠٣] . واشتد سخط الشعب حتى بلغ إثارة الشغب فى عدة مدن ؛ ففى نيورك شنقت دمية تمثل الحاكم (وهو معين من قبل الملك) ، وفى بوسطن أحرق بيت مساعد الحاكم ، توماس هتشنسن ، وأكره موزعو الدمغـــة على الاستقالة من وظائفهم تحت التهديد بشنقهم . وشعر التجار البريطانيون بوقع المقاطعة ، فطالبوا بإلغاء القانون . وأرسلت الالتماسات إلى الحكومة من لندن وبرستل وانربول وغيرها من المدن ، مقررة أن كثيرين من رجال الصناعة الإنجليز سيفلسون إن لم يلغ القانون ، وكان الآلاف من العمال قد طردوا فعلا للافتقار إلى الطلبات من أمريكا . وربما كان من قبيل الإقرار بهذه الالتماسات أن يعود بت بعد مرض طويل إلى البرلمان عودة درامية ويصرح قائلا (١٤ يناير ١٧٦٦) « رأيى أن هذه المملكة لا حق لها فى فرض ضريبة على المستعمرات » . وقد سخر من « الفكرة التى تزعم أن المستعمرات ممثلة فعلا فى المجلس » فلما قاطعه جورج جرنفل زاعما أنه يلمح بتشجيع الفتنة رد بت فى تحد قائلا « إنى مغتبط لأن أمريكا قد قاومت » [١٠٤] .

وفى ١٨ مارس أقنع اللورد روكنجهام البرلمان بإلغاء ضريبة الدمغة . ورغبة فى استرضاء « أصدقاء الملك » أضاف إلى الإلغاء « قانونا له صفـــة الإعلان » يؤكد من جديد سلطة الملك فى أن يضع بموافقة البرلمان قوانين ملزمة للمستعمرات ، وسلطة البرلمان فى فرض الضرائب على المستعمرات البريطانية . وقبل الأمريكيون الإلغاء، وتجاهلوا قانون الإعلان . وأصبحت المصالحة الآن ممكنة . ولكن فى يوليو سقطت وزارة روكنجهام، وفى وزارة جرافتن التى تلتها جدد تشارلز تاونسهند ، وزير الماليـــة ، محاولة إلزام المستعمرات بدفع نفقات القوات الإدارية والحربية اللازمة لحمايتها من اختلال النظام فى داخلها أو الهجوم عليها من الخارج . ففى ١٣ مايو ١٧٦٧ اقترح على البرلمان فرض رسوم جديدة على الزجاج والرصاص والورق والشاى، الذى تستورده أمريكا ، على أن يستخدم الملك حصيلة هذه الرسوم فى دفع رواتب الحكام والقضاه الذين يعينهم لأمريكا ، فإذا كان هناك فائض وجه

للانفاق على الجنود البريطانيين هناك . ووافق البرلمان . ومات تاونسهند بعدها بشهور .

وقاوم الأمريكيون الرسوم الجديدة باعتبارها ضرائب مقنعة . وكانوا يتحكمون فى جنود الملك وحكامه بجعلهم معتمدين إلى حد كبير فى إعالتهم على الأموال التى توافق عليها مجالس المستعمرات ، فتسليم قوة المال هذه للملك معناه تسليم إدارة الحكومة الأمريكية للسلطة الملكية ، وأجمعت المجالس على الحض على مقاطعة البضائع البريطانية من جديد ، ولقيت الجهود المبذولة لجمع الرسوم الجديدة مقاومة عنيفة ، وحاول اللورد نورث حلا وسطا بإلغاء جميع الرسوم التى فرضها تاونسهند فيما عدا رسما على الشاى قدره ثلاثة بنسات على الرطل ، وأرخى المستعمرون مقاطعتهم ، ولكنهم صمموا على ألا يشربوا من الشاى إلا المهرب . فلما حاولت ثلاثة سفن تملكها شركة الهند الشرقية تفريغ ٢٨٩ صندوقا من الشاى فى بوسطن ، صعد إلى السفن خمسون مستعمرا حانقا متنكرين فى زى هنود الموهوك ، وتغلبوا على مقاومة ملاحيها ، وأفرغوا شحنتها فى البحر (١٦ ديسمبر ١٧٧٣) . وعطلت حوادث الشغب فى ثغور أمريكية أخرى المزيد من الجهود لتفريغ شاى الشركة .

وبقية القصة أكثر يخص أمريكا ، ولكن الدور الذى لعبه فيها ساسة بريطانيا وخطباؤها وكتابها ورأيها العام هو عنصر حيوى فى تاريخ انجلترة وكما أن أقلية كبيرة نشيطة فى أمريكا طالبت بالولاء للوطن الأم ولحكومته ، فإن أقلية فى انجلترة يمثلها فى البرلمان شاتام ، وبيرك ، وفوكس ، وهوراس ولبول ، وولكس ، ناضلت لإقرار سلام بشروط فى مصلحة أمريكا ، بينما كان الجمهور عموما يؤيد الإجراءات الحربية التى اتخذتها وزارة اللورد نورث . ورأى البعض فى انقسام الرأى العام الإنجليزى على هذا النحو إحياء للمعارضة التى قامت بين الملكيين والبرلمانيين فى ١٦٤٢ . وناصرت الكنيسة الإنجليزية الحرب ضد المستعمرين مناصرة كاملة ، وكذلك المثوديون سيرا وراء زعيمهم ويسلى ، ولكن كثيرا من المنشقين غير هؤلاء أسفوا على هذا الصراع لأنهم

تذكروا أن أغلبية من المستعمرين تحدرت من جماعات منشقة . ووافق جبون جونسون على إدانة المستعمرات ، ولكن ديفد هيوم حذر بريطانيا وهو على وشك الموت من أن محاولة إكراه أمريكا ستفضى الى كارثة(١٠٥) أما أصحاب المصالح التجارية فقد مالوا إلى تأييد الملك لأن طلبات الحرب تجلب لهم الأرزاق . وقال بيرك فى حزن أن الحرب « قد أصبحت بديلا للتجارة حتما ... والطلبات الضخمة على الإمدادات والبضائع من كل نوع ... ترفع معنوية عالم التجارة ، وتغرى التجار بألا يروا فى الحرب الأمريكية نكبتهم بقدر ما هى مورد ثرائهم »(١٠٦) .

وخشى الأحرار أن تقوى الحرب المحافظين على حزبهم ، والملك على البرلمان ، وفكر أحد الأحرار وهو دوق رتشموند فى الرحيل إلى فرنسا فرارا من الاستبداد الملكى(١٠٧) وكان فى مسلك جورج الثالث مايبرر مثل هذه المخاوف بعض التبرير . فقد اضطلع بمهمة الحرب كاملة ، حتى بتفاصيلها الحربية ، وأطاع اللورد نورث والوزراء الآخرون قيادة الملك وإن ناقض هذا رأيهم الخاص فى حالات كثيرة ، وأحس الملك أنه لو نجح الأمريكيون لواجهت انجلترة الثورة فى مستعمرات أخرى ، ولانحصرت آخر الأمر فى جزيرتها ، على أن اللورد شاتام حذر البرلمان من أن قمع أمريكا سيكون انتصارا لمبادىء تشارلز الأول وجيمس الثانى . وفى ٢٠ نوفمبر ١٧٧٧ ، بعد أن عانت الجيوش البريطانية هزائم كثيرة فى أمريكا ، وكانت فرنسا تعين المستعمرات بالمال ، استمع شاتام وهو قادم إلى مجلس اللوردات كأنما من القبر إلى « خطاب العرش » الوزارى بضيق متعاظم ، وقام ليلقى خطابا يعد من أروع ما سجلته البلاغة البريطانية من خطب ، ففيه اجتمع التاريخ والأدب . قال :

« إننى يا سادتى اللوردات أقف لأعرب عن مشاعرى عن هذا الموضوع البالغ الجد والخطر .. فلست أستطيع الموافقة على خطاب أعمى ذليل يوافق ويحاول أن يكرس الإجراءات الرهيبة التى هالت فوقنا العار والخطوب — والتى جلبت الخراب إلى أبوابنا .. هذه أيها السادة لحظة خطرة هائلة !

ليس الوقت وقت تزلف .. فلطف التزلف لا يجـــدى الآن ... ومن الضرورى الآن إعلام العرش بلغة الصدق .. هذا أيها السادة واجبنا ، انه الوظيفة الأصلية لهذا الاجتماع النبيل ، المعتمد فى انعقاده على سمعتنا بالأمانة والوفاء بالوعود فى هذا البرلمان ، وهو المجلس الوراثى للتاج . فمن هو الوزير — وأين هوالوزير — الذى جرؤ على أن يقترح على العرش تلك اللغة العنيدة ، غير الدستورية التى ألقيت اليوم منه ؟ إن اللغة التى اعتدناها من العرش هى طلب المشورة من البرلمان ... أما اليوم ، وفى هذا الطارىء البالغ الخطورة ، فإنه لم توضع ثقـــة فى مشورتنا الدستورية ، ولم تطلب نصيحة من عناية البرلمان الرصينة المستنيرة ، ولكن التاج ، من ذاته ووحده ، يعلن تصميما باتا على مواصلة إجراءات ... مملاة ومفروضة علينا ... جلبت الخراب والاحتقار على هذه الإمبراطورية التى كانت بالأمس مزدهرة بالأمس فقط ، كان فى استطاعة انجلترة أن تثبت أمام العالم كله ، أما الآن فليس هناك أحد بلغ من المسكنة ما يغريه بتقديم الإحترام لها . . . »

« أيها السادة ، انكم لن تستطيعوا قهر أمريكا . . قد تزدادون غلوا فى بذل النفقة والجهد المفرطين ، وقد تجمعون وتكومون كل ما تستطيعون شراءه أو اقتراضه من معونة ، وقد تتاجرون وتقايضون مع كل ملك المانى حقير ضئيل يبيع رعاياه ويرسلهم إلى الذبح . . ، قد تفعلون هذا كله ، ولكن جهودكم تظل إلى الأبد باطلة عاجـــزة — ويضاعف من بطلانها وعجزها هذا العون المرتزق الذى تعتمدون عليه ، لأنه يهيج عقول أعدائكم إلى حد الكراهية التى لا شفاء منها . ولو كنت أمريكيا ، كما أنا انجليزى ، ورأيت جندياً أجنبياً يرسى فى أرض وطنى ، لما وضعت سلاحى — أبداً = أبداً — أبداً — أبداً ! (١٠٨) .

أما بيرك فقد سخرّ كل ملكات جده له فى محاولة ثنى البرلمان والوزارة بحد سياسة القوة ضد أمريكا . وقد مثل من ١٧٧٤ إلى ١٧٨٠ فى البرلمان مدينة برستل التى عارض تجارها الحـــرب مع أمريكا أول الأمر (١٠٩) ، كذلك كان فى هذه الفترة وكيلا براتب لولاية نيويورك (١١٠) . ولم ينكر حق البرلمان فى فرض الضرائب على المستعمرات كما أنكره شاتام ، ولم يؤيد

لجوء المستعمرين إلى نظريات تجريدية فى « الحق الطبيعى » . ولكنه نزل بالمسألة إلى حيث يستطيع الرجال العمليون أن يفهموه : فهل فرض الضرائب على أمريكا ممكن عملياً ؟ وفى خطابه عن الضرائب الأمريكية (١٩ أبريل ١٧٧٤) لم يكتف بأدانة قوانين تاونسهند بل أدان أيضاً ضريبة البنسات الثلاثة على الشاى ، وحـــذر من أن إضافة ضرائب على القيود الصناعية والتجارية المفروضة فعلا على أمريكا ستحمل المستعمرين على المضى فى ثورة من شأنها أن تمزق الإمبراطورية البريطانية الوليدة وتلوث سمعة البرلمان .

فلما هزم فى هذه القضية جدّد فى ٢٢ مارس ١٧٧٥ طلب المصالحة . وقال إن التجارة مع أمريكا قد تضاعفت عشر مرات بين عامى ١٧٠٤ و ١٧٧٢ (١١١) ثم تساءل أمن الحكمة تمزيق تلك التجارة وربما التضحية بها بالحرب ؟ وقال أنه يخشى أن الحرب مع المستعمرين ستترك انجلتره معرضه للهجوم من عدو أجنبى ، وهو ما حدث فى ١٧٧٨ . ووافق على أن تمثيل الأمريكيين فى البرلمان جعله البحر أمراً غير ممكن عمليا ، ولكنه أكتفى بأن يطلب بالا تعتمد انجلتره على الضرائب بل على المنح الاختياريه من مجالس المستعمرات ، وقد تزيد هذه المنح على حصيلة الضرائب المباشرة بعد خصم نفقات جمعها بالقوة (١١٢) .

على اقتراحه هذا رفض بأغلبية ٢٧٠ ضد ٧٨ ، ولكن كان عزاء له أن يكسب لقضيته بلاغة وحذق تشارلز جيمس فوكس ، وهكذا بدأت صداقة وثقت عراها الثورة الأمريكية وفصمتها الثورة الفرنسية . وقد وصف جيون خطاب فوكس الذى ألقاه فى ٣١ أكتوبر ١٧٧٦ بأنه أقدر ما ألقاه فى حياته من خطب ، وذهب هوراس ولبول إلى أنه « من أروع خطب فوكس وأشدها حيوية » (١١٣) وقد وقف ولبول فى وصف دعاة المصالحة ، ورثى لانهيار الحنكة السياسية البريطانية فى ظـــل حكومة اللورد نورث ، وفى ١١ سبتمبر ١٧٧٥ كتب إلى هوراس مان يقول :

« تقرر أن يجتمع البرلمـــان فى العشرين من الشهر القادم ويصوت على إرسال ٢٦,٠٠٠ بحار . فياله من قرار دموى ! ليت شعرى بأى صنوف

العذاب لابد من صيانة الحرية فى أمريكا ! وفى انجلتره ما الذى يستطيع انقاذ الحريه ؟ إيه انجلتره المجنونه ، المجنونة ! أى جنون أن تنبذ كنوزها ، وتضيع ثروتها الطائلة ، وتضحى بحريتها ، ليكون ملكها الحاكم المطلق لصحارى لانهاية لها فى أمريكا ، وجزيرة فى أوربا مفتقره إلى المال ، منزوحة السكان ، ومن ثم فاقدة الأهمية ! »[١١٤] .

على أن الذى أقنـــع الشعب الإنجليزى ، ثم حكومته ، بأفكار السلام لم تكن حماسة شاتام ولا بيرك ولا فوكس ، بل انتصارات المستعمرات وتحركاتها الدبلوماسية . وكان استسلام بورجوين فى ساراتاجوا (١٧ أكتوبر ١٧٧٧) نقطة التحول ، ولأول مـــرة قدرت إنجلتره تحذير شاتام « لن تستطيعوا قهر أمريكا » فلما اعترفت فرنسا بـــ « ولايات أمريكا المتحدة » وانضمت إلى الحرب ضـــد إنجلتره (٦ فبراير ١٧٧٨) أيد رأى الساسة الفرنسيين رأى شاتام ، وأضف ثقل الأسلحة الفرنسية والبحرية الفرنسية المجددة إلى العبء الملقى على كاهل الأمة البريطانية بل أن اللورد نورث ذاته تخاذل ، ورجا الأذن له بالإستقالة ، ولكن الملك الذى أغرقه بهباتة أمره بالبقاء فى منصبه .

وشعر الكثيرون من الإنجليز البارزين أنه لن يستطيع اقناع المستعمرات بالعدول عن تحالفها مع فرنسا إلى الإتحاد مع انجلتره ثانية إلا حكومة يتزعمها ايرل شاتام . ولكن جورج أبى أن يستمع لهذا الرأى . فقد قال لنورث « أنى أصرح تصريحاً قاطعاً بأنه ما من شىء يحملنى على التعامل شخصياً مع اللورد شاتام »[١١٥] وجاء الأيرل إلى مجلس اللوردات لآخر مرة فى ٧ أبريل ١٧٧٨ مستنداً إلى عكازين وابنه وليم ، وقد اكفهر وجهه إيذانا بدنو منيته ، وضعف صوته حتى لم يكد يسمع . وعاد ينصح بالمصالحة ، ولكنه عارض « تقطيع أوصال هذه الملكية العريقة النبيلة جداً » بمنح الاستقلال لأمريكا[١١٦] ورد الدوق رتشموند بأن هذا المنح وحده هو السبيل إلى رد أمريكا عن عن حلفها مع فرنسا . وحاول شاتام أن ينهض ويتكلم ثانية ، ولكنه سقط مصاباً بنوبة فالج ، ومات فى ١١ مايو ١٧٧٨ وقرر البرلمان أن يشيع فى

جنازة عامة وأن يقام له قبر ونصب فى كنيسة وستمنستر . لقد كان بإجماع الناس أعظم الانجليز فى جيله .

وتلاحقت الأحداث لتكمل الكارثة التى تنبأ بهـــا . ففى يونيو ١٧٧٩ انضمت أسبانيا إلى فرنسا فى الحرب ضد انجلتره ؛ وحاصرت جبل طارق وأرسلت أسطولها ليشارك فى الهجوم على السفن البريطانية . وفى أغسطس دخل أسطول صغير مشترك قوامه سفن فرنسية وأسبانية القنـــال الإنجليزى ؛ وأتخذت إنجلتره أهبتها فيما يشبه الحمى لمقاومة الغزو ، غير أن المرض أعجز أسطول العدو وأكرهه على الالتجاء إلى برست . وفى مارس ١٧٨٠ اتحدت روسيا والدنمرك والسويد فى اعلان بالحيـــاد المسلح » أقسم على مقاومة ما درجت عليه انجلتره من اعتلاء ظهور السفن المحايده بحثا عن بضائع العدو ، ولم تلبث دول محايدة أخرى أن وقعت الإعلان . واستمر تفتيش الإنجليز للسفن الهولندية ، وقد وجد الدليل على اتفاقات سرية بين مدينة امستردام ومفاوض أمريكى . وطالبت إنجلتره بمعاقبة موظفى امستردام ولكن الحكومة الهولندية رفضت ، فأعلنت عليها إنجلتره الحـــرب (ديسمبر ١٧٨٠) . وأصبحت الآن كل دول البلطى والاطلنطى تقريباً متحالفة على إنجلتره التى كانت بالأمس متسلطة على جميع البحار .

وعكس مراج البرلمان تكاثر الكوارث . وتصاعد الاستياء من إحباط الملك لرغبة وزيره فى إنهاء الحرب . ففى ٦ أبريل ١٧٨٠ كان جون دننج قد قدم لمجلس العموم اقتراحا يعلن « أن نفوذ التاج ازداد ، وهو فى ازدياد ، وينبغى الحد منه » ، ووافق المجلس على الاقتراح بأغلبية ٢٣٣ صوتاً ضد ٢١٥ . وفى ٢٢ يناير ١٧٨١ اتخذ بت الإبن كرسيه فى المجلس ، وفى خطابه الثانى نادد بالحرب مع أمريكا ناعتا أياها بأنهـــا « مجد ملعونة ، شريرة ، همجية ، قاسية ، منافية للطبيعة ، ظالمة ، شيطانية » [١١٧] . ورحب فوكس مبتهجاً ببت فى صفوف المعارضة ، غير متوقع أن هذا الفتى سيكون عما قليل أقوى أعدائه .

وفى ١٩ أكتوبر ١٧٨١ استسلم اللورد كورنواليس لواشنطن فى يوركتاون.

وصاح اللورد نورث « رباه ، لقد انتهى كل شىء ! » ولكن الملك أصر على مواصلة الحرب . وفى فبراير ومارس ١٧٨٢ جاءت الأنباء بأن الأسبان استولوا على منورقة ، والفرنسيين على عدد من جزر الهند الغربية . وارتفعت الأصوات الغاضبة فى الاجتماعات العامة التى انعقدت فى طول إنجلتره وعرضها مطالبة بالسلام . وهبطت أغلبية نورث فى مجلس العموم إلى اثنين وعشرين ، ثم إلى تسعة عشر ، ثم إلى واحد — فى التصويت على اقتراح « بأن المجلس لا يستطيع بعد الآن وضع ثقته فى الوزراء الحاليين » (١٥ مارس ١٧٨٢) ، ووضع هذا سابقة تاريخية لطريقة البرلمان فى الالزام بتغيير الوزارة . وفى ١٨ مارس كتب نورث إلى جورج الثالث رسالة أنبأه فيها فى الواقع أن السياسة الملكية نحـــو أمريكا ، ومحاولة توطيد سيادة الملك على البرلمان ، كليهما قد فشل .

« إن جلالتكم على بينة من أن الملك الجالس على عرش هـــذا البلد لا يستطيع إن كان حصيفا أن يعارض القرار المدروس الذى يستقر عليه مجلس العموم . . . لقد أعرب أعضاء البرلمان عن مشاعرهم ، ومشاعرهم — صائبة كانت أم مخطئة — لابد فى النهاية أن تكون لها الغلبة . إن جلالتكم لن تفتقدوا أى كرامة لو سلمتم »[١١٨] .

وفى ٢٠ مارس ١٧٨٢ ، بعد اثنتى عشرة سنة من الخدمة الصابرة والخضوع ، استقال اللورد نورث . وكتب جورج الثالث الذى تحطمت روحه خطاب اعتزال ولكنه لم يرسله . وقبل وزارة من الأحرار المنتصرين : روكنجهام ، وإيرل شلبيرن ، وتشارلز جيمس فوكس ، وبيرك ، وشريدان . ولما مات روكنجهام (أول يوليو) خلفه شلبيرن وزيرا للخزانة . واستقال فوكس وبيرك وشريدان الذين كانوا يكرهون شلبيرن . وشرع شلبيرن فى الترتيبات اللازمة لإبرام معاهدة صلح (باريس ، ٣٠ نوفمبر ١٧٨٢ ، باريس وفرساى ٢٠ يناير و ٣ سبتمبر ١٧٨٣) نزلت انجلتره بمقتضاها عن منورقة وفلوريدا لأسبانيا ، وعن السنغال لفرنسا ، ولم تقتصر على الاعتراف باستقلال المستعمرات الأمريكية بل بحقها فى جميع الأراضى الواقعة بين الأليجنى وفلوريدا والمسسبى والبحيرات العظمى .

وكان الشعب الإنجليزى تواقا للسلام، ولكن ساءه النزول عن هذه الأقاليم الكثيرة للمستعمرات ، وبلغ النقد الموجه لشلبيرن من لمرارة حدا حمله على تقديم استقالته (٢٤ فبراير ١٧٨٣) ولما كان الشقاق بين شلبيرن وفوكس قد قسم حزب الأحرار إلى شيع لم يكن لإحداها من القوة مايتيح لها الهيمنة على البرلمان ، فقد وافق فوكس على تشكيل وزارة ائتلاف مع عده القديم اللورد نورث . وأصبح بيرك صيرفيا للقوات المسلحة ثانية . أما شريدان الذى لم يفق من ديونه قط فقد عين وزيرا للخزانة . وكان فوكس وبيرك يفحصان منذ فترة مسلك الإنجليز فى الهند، واحتل ذلك البلد الآن محل أمريكا بوصفه أشد المشاكل إلحاحا فى السياسة البريطانية .

٦ — انجلتره والهند

كانت شركة الهند الشرقية البريطانية قد أعيد تنظيمها فى ١٧٠٩ باسم الشركة المتحدة لتجار انجلترة المتجرة مع الهند الشرقية » . وقد خولها المرسوم الذى حصلت عليه من الحكومة البريطانية احتكار التجارة البريطانية مع الهند . وكان يدير شئونها رئيس وأربعة وعشرون مديرا ينتخبهم سنويا « مجلس الملاك » لكل مساهم فيه بخمسمائة جنيه أو أكثر صوت واحد . وقد أصبحت الشركة فى الهند منظمة حربية كما كانت منظمة تجارية ، وقاتلت الجيوش الهولندية والفرنسية والوطنية للظفر بنصيب من امبراطورية المغول المتهاوية ، وفى حرب من هذه الحروب استولى سراج الدولة ، حاكم البنغال ، على كلكتا من الشركة ، وحبس ١٤٦ أوربيا فى « جحر كلكتا الأسود » — وهو حجرة طولها ثمانية عشر وعرضها أربعة عشر قدما ، ليس فيها غير طاقتين صغيرتين ، ومات من السجناء ١٢٣ أثناء الليل (٢٠ — ٢١ يونيو ١٧٥٦) من الحر أو الاختناق .

وقاد روبرت كلايف حاكم قلعة سانت ديفيد قوة صغيرة لاسترداد كلكتا للشركة وشارك فى المؤامرة التى دبرها مير جعفر ، وهو نبيل فى بلاط سراج الدولة ، للاطاحة بهذا الحاكم ، ثم استطاع بتسعمائة أوربى و ٢٫٣٠٠ جندى من الوطنيين أن يهوم خمسين ألف مقاتل فى بلاسى (٢٣ يونيو ١٧٥٧)

وأعدم سراج الدولة ، وعين مير جعفر مكانه حاكما على البنغال . ودخل كلايف العاصمة مرشداباب دخول الفاتحين ، وبدت له مدينة لا تقل عن لندن حجما وربما أكثر منها ثراء . ورأى فى خزانة الحاكم أكداسا لاتصدق من الروبيات والجواهر والذهب والفضة وغيرها من الذخائر . فلما طلب إليه أن يحدد مكافآتة عن تنصيب جعفر حاكما ، طلب ١٦٠ر٠٠٠ جنيه لنفسه ، ٥٠ر٠٠٠ لجيشه وبحريته ، ٢٤ر٠٠٠ جنية لكل عضو من أعضاء مجلس إدارة الشركة ، و١ر٠٠٠ر٠٠٠ جنيه تعويضا عن الخسائر التى لحقت بأملاك الشركة فى كلكتا . وهذه هى المناسبة التى أشار اليها كلايت حين أنبأ مجلس العموم أنه يعجب من اعتداله(١١٩). وقدتلقى من مير جعفر هدايا جملة قيمتها ٢٠٠ر٠٠٠ جنيه (١٢٠) واعترف به حاكما بريطانيا للبنغال .

أما الشركة فقد اعترف بها مالكة مطلقة لمساحة حول كلكتا مقدارها ٨٨٢ ميلا مربعا نظير دفع إيجار سنوى قدره ٢٧ر٠٠٠ جنيه لمير جعفر ، وفى ١٧٥٩ وافق مير جعفر على أن يحوّل لكلايف كل عام الإيجار المدفوع من الشركة لقاء العون الذى قدمه له فى إخماد فتنة .

فلما أمنت الشركة شر المنافسة ، راحت تستغل الرعايا الخاضعين لحكمها فى غير شفقة واستعانت بأسلحتها المتفوقة لتكره الحكام الهنود على دفع ثمن باهظ لقاء الحماية البريطانية . وإذ كان كبار موظفيها بمنأى عن إشراف الحكومة البريطانية ، وبمأمن حصين من الواصا العشر شرقى السويس فقد حققوا أرباحا ضخمة من التجارة ، وعادوا إلى انجلتره سراة فى وسع الرجل منهم أن يشترى « دائرة جيب » أو عضوا فى البرلمان دون أن تضار ثروته ضررا بالغا .

وعاد كلايف إلى انجلتره فى ١٧٦٠ وقد بلغ الخامسة والثلاثين متوقعا أن ينعم فيها بالشهرة والثراء « فاشترى من الدوائر الانتخابية مايكفى للسيطرة على جبهة فى مجلس العموم ، وانتخب هو نفسه نائبا عن شروزبرى . غير أن بعض مديرى شركة الهند الشرقية الذين شعروا أنه سرق فوق ماتبرره سنه ، اتهموه باستخدام وثائق مزورة فى تعامله مع سراج الدولة ، ومير جعفر . غير أن نبأ وصل إلى لندن بأن الثورات الوطنية ، وفساد الموظفين

وارتشاءهم ، وعجز الإدارة — كلها تهدد مركز الشركة فى الهند ، فأعيد كلايف على عجل إلى كلكتا (١٧٦٥) حاكما للبنغال . وهناك كافح لوقف الفساد بين مساعديه ، والتمرد بين جنده ، وانتفاضات الحكام الوطنيين المتكررة على الشركة . وفى ١٢ أغسطس ١٧٦٥ أقنع شاه علم المغولى بأن يعطى الشركة الإشراف المالى المطلق على ولايات البنغال ، وبهار ، وأوريسا ، التى تضم من السكان ثلاثين مليونا وتغل إيرادا سنويا قدره ٤٫٠٠٠٫٠٠٠ جنيه . وهذا ، بالإضافة إلى انتصار كلايف فى بلاسى ، خلق الامبراطورية البريطانية فى الهند .

وبعد أن تحطمت صحة كلايف من جراء نضال امتد عامين ، عاد إلى انجلتره فى يناير ١٧٦٧ . وتجدد هجوم بعض مديرى الشركة عليه ، وأيد الهجوم موظفون كان قد كبح محاولات ابتزازهم للمال . ثم شارك نبأ مجاعة كبرى فى الهند ، وهجمات الوطنيين على معاقل الشركة ، فى إحداث ذعر عام من جرائه نفر من أقطاب الإنجليز بخسائر فادحة . وفى ١٧٧٢ فحصت لجنتان برلمانيتان شئون الهند ، فأماطتا اللثام عن ضروب من الابتزاز والقسوة جعلت هوراس ولبول يصيح : « لقد فقدنا الأسبان فى بيرو ! لقد قتلنا ، وخلعنا الحكام ، ونهبنا ، واغتصبنا . . أجل ، فما قولكم فى مجاعة البنغال التى هلك فيها ثلاثة ملايين من الأنفس وسببها احتكار موظفى شركة الهند الشرقية للمؤن ؟ » [١٢١] وفى ١٧٧٣ طالبت إحدى لجنتى الفحص كلايف بأن يفسر لمجلس العموم الطرق التى استخدمها والمكاسب التى حققها فى الهند . فسلم لهم بجميع الوقائع تقريبا ، وكان دفاعه عنها أن العادات المحلية وضرورات الموقف بررتها ، ثم أضاف أن على الأعضاء حين يجيئون ليدينوا شرفه ألا ينسوا شرفهم . وصوت المجلس بأغلبية ١٥٥ ضد ٩٥ بأنه تلقى ٢٣٤٫٠٠٠ جنيه خلال إدارته الأولى للبنغال ، ولكنه « فى الوقت نفسه أدى لوطنه فى الواقع خدمات جليلة جديرة بالثناء » [١٢٢] وبعد عام انتحر كلايف غير متجاوز التاسعة والأربعين (٢٢ نوفمبر ١٧٧٤) :

وفى ١٧٧٣ استصدر اللورد نورث من البرلمان قانونا تنظيميا أقرض الشركة سلفة مقدارها ١٫٤٠٠٫٠٠٠ جنيه لينقذها (هى ومساهميها من النواب)

من الإفلاس ، وأخضع جميع الأقاليم التى تحكمها الشركة فى الهند لرآسة البنغال على أن تكون هى بدورها مسئولة أمام الحكومة البريطانية وعين وارن هيستنجز حاكما على البنغال .

وكان قد ارتقى إلى منصبه هذا من أصول متواضعة . فقد ماتت أمه وهى تلده ، وانطلق أبوة إلى حياة المغامرة ثم الموت فى جزر الهند الغربية . وأرسل أحد أعمامه الغلام إلى مدرسة وستمنسر ، ولكن العم مات فى ١٧٤٩ ، وأبحر وارن وهو فى السابعة عشرة طلباً للثراء فى الهند . وتطوع فى الخدمة العسكرية تحت قيادة كلايف ، وشارك فى استرداد كلكتا ، وأبدى اجتهادا وكفاية فى الإدارة ، فعين فى المجلس الذى يدير شئون الشركة فى البنغال . وفى ١٧٦٤ عاد إلى انجلتره . وبعد أربعة أعوام أقنعه المديرون بالإنضمام إلى مجلس مدراس . وفى طريقه إلى الهند التقى بالبارون إيمهوف وزوجته ماريون التى أصبحت خليلة هيستنجز ثم زوجته . وقد أبلى فى مدراس ، وفى ١٧٧٤ بدأ حكمه المضطرب واليا على البنغال .

وعكف على عمله بهمة ، ولكن أساليبه كانت دكتاتورية ، وكان فى بعض تصرفاته ما أتاح للسر فليب فرانسس مادة لتوجيه الهجمات إليه فى مجلس البنغال ، كما وجهها بيرك بعد ذلك فى البرلمان . ذلك أنه حين أعادت قبائل المراتا المشاه علم إلى عرش المغول فى دلهى فحول إليهم ملكية الأقاليم التى خصصها له كلايف من قبل فى كورا والله اباد ، باع هيستنجز هذه الأقاليم إلى حاكم أود ، لقاء خمسين لك من الروبيات (٢٠٫٠٠٠٫٠٠٠ دولار ؟) وكلف جنود الشركة بمساعدة الحاكم فى استعادة الإقليم . وسمح له بالاستعانة بجنود الشركة فى غزو وتملك إقليم روهلخند ، الذى كان حاكمه مدينا له (على حد قول هذا) ، وتسلمت الشركة مبلغا كبيرا لقاء استخدام هؤلاء الجنود . وكان فى تصرف هيستنجز خرق واضح للأوامر الصادرة إليه من مديوى الشركة [١٢٣] ، ولكن هؤلاء المديرين كانوا يقدرون أى حاكم بمقدار المال الذى يبعث به إلى انجلتره .

واتهم موظف هندى يدعى ننكومار هيستنجز بقبوله الرشوة ، وصدق

فرانسس وغيره من أعضاء المجلس التهمة ، وادعوا أنه « ما من ضرب من ضروب الاختلاس رأى الحاكم المحترم أن من المعقول الامتناع عنه » [١٢٤] .

وقبض على ننكومار بتهمة تزوير ، وأدين ، وأعدم (١٧٧٥) . واشتبه فى أن هيستنجز قد استخدم نفوذه فى التأثير على قاضى القضاه السير ايليا ايمبى (وكان زميلا له فى الدراسة فى ونشستر) ليوقع على المتهم عقوبة صارمة على نحو غير مألوف . وفى ١٧٨٠ رقى هيستنجز ايمبى إلى وظيفة إضافية تغل له ٦٫٥٠٠ جنيه فى العام . وقد أفضى تراشق هيستنجز وفرانسس بالتهم إلى مبارزة جرح فيها فرانسس جرحا خطيرا .

ثم رأى حيدر على ، مهراجا ميسور ، فى الخلافات بين هيستنجز ومجلسه فرصة لطرد الشركة من الهند . فهاجم حصون الشركة بدعم من الفرنسيين ، وأحرز بعض الانتصارات المنذرة بالخطر (١٧٨٠) . فأرسل هيستنجز الجند والمال من البنغال لمقاومته ، ومات حيدر على (١٧٨٢) ولكن ابنه تيو صاحب واصل الحرب حتى انهزم نهائيا فى ١٧٩٢ . ولعل رغبة هيستنجز فى تمويل هذه الحملات هى التى ألجأته إلى حيل لجمع المال أفضت إلى اتهامه .

ذلك أنه طالب شايت سنغ ، راجا بنارس ، بإعانة حرب تضاف إلى الدخل الذى كان ذلك الإقليم يدفعه للشركة سنويا . واعتذر الراجا بعجزه عن الاستجابة . فقاد هيستنجز قوة صغيرة إلى بنارس (١٧٨١) ، وخلع سنغ واقتضى مثلى الدخل من خلفه . ثم إن حاكم أوده المتراخى فى سداد ما فرضته عليه الشركة ، أوضح أن فى استطاعته السداد إذا ساعدته الشركة على إلزام أمه وجدته ، بيجومى (أميرتى) أوده ، بتسليمه بعض التركة التى خلفها لهما أبوه وقدرها ٢٫٠٠٠٫٠٠٠ جنيه . وكانت أمه قد سلمته من قبل مبلغا كبيرا بعد أن تعهد بألا يطلب المزيد ، وبذلت الشركة مثل هذا التعهد رغم اعتراض هيستنجز . ونصح هيستنجز الحاكم بتجاهل التعهد وأرسل جنود الشركة إلى فيظبار ، وأكره خدام الأميرتين الأغوات بالتعذيب والتجويع على تسليم الثروة (١٧٨١) ، فدفع الحاكم منها ديونه للشركة . [١٢٥]

وعاد السر فيليب فرانسس أثناء ذلك إلى انجلتره بعـــد أن شفى من جراحه (١٧٨١) ، وشرح للمديرين ولأصدقائه فى البرلمان ما اعتبره الجرائم التى اقترفها هيستنجز . وفى ١٧٨٢ وجه مجلس العموم اللوم إلى هيستنجز وغيره من وكلاء الشركة لأنهم « فى حالات عديدة تصرفوا بطريقة بغيضة مجافية لشرف الأمة وسياستها » ، ثم أمر المديرين باستدعائهم وأصدر المديرون الأمر ، ولكن مجلس المؤسسين أبطلة ، ربما لأن ثورة ميسور كانت مستمرة .

وفى نوفمبر ١٧٨٣ قدم تشارلز جيمس فوكس للبرلمان ، بوصفه وزير دولة للشئون الخارجية فى الوزارة الائتلافية ، « مشروع قانون لإصلاح الهند » او ووفق عليه لوضع شركة الهندالشرقية تحت هيمنة مندوبين تعينهم الوزارة . وعلت شكوى النقاد بان القانون سيتيح للأعضاء الأحرار (الهويجز) أمثال فوكس وبيرك معينا من الغنائم تأتيهم بها هذه الرعاية . ومر القانون من مجلس العموم، ولكن الملك أرسل إلى مجلس اللوردات يقول أنه سيعد أى رجل يصوت للمشروع عدوا له ، فصوتوا ضده بأغلبية ٩٥ إلى ٧٦. وأودع نواب العموم احتجاجا رسميا يقرر أن هذا التدخل الملكى فى التشريع عدوان صارخ على حق أعضاء البرلمان . وأقال الملك الوزارة الائتلافية (١٨ ديسمبر ١٧٨٣) مدعيا أنها فقدت ثقة البرلمان ، ودعا وليم بت ، الذى كان فى الرابعة والعشرين ، لتأليف حكومة جديدة . وحل جورج الثالث البرلمان معتقدا أن فى استطاعته الفوز فى انتخاب قومى (٢٣ مارس ١٧٨٤) وأمر عملاءه ببث الرغبات والعطايا الملكية بين الناخبين ضمانا لعودة أغلبية محافظة . وجاء البرلمان الذى التأم شمله فى ١٨ مايو مؤيدا لبت والملك تأييدا ساحقا .

كان بت نابغة فى الحكم والإدارة السياسيين وقد حقق له تفانيه البالغ فى أداء الواجب ، وإلمامه المفصل بدقائق الأمور ، وما عود نفسه عليه من التأمل الدقيق والحكم الحذر، تفوقا سرعان ماسلم به كل زملائه الوزراء تقريبا . وأصبح لانجلتره الآن لأول مرة « رئيس » وزراء بعد روبرت

ولبول (الذى كان ابنه قد أطلق عليه هذا اللقب فى ١٧٧٣) [١٢٦] ، لأن زملاء بت لم يكونوا يتخذون أى إجراء هام دون موافقته . والواقع أنه أنشا « حكومة مجلس الوزراء » — ومؤداها المداولة الجماعية والمسئولية الموحدة الكبار الوزراء تحت رياسة واحدة . ومع أن بت تقلد المنصب مؤيدا للسلطة الملكية ، إلا أن جده واجتهاده ، وسعة معلوماته رفعته شيئا فشيئا إلى مكان كان فيه مرشدا للملك أكثر منه تابعا . وبعد نوبة الجنون الثانية التى أصابت الملك (١٧٨٨) كان بت هو الذى حكم انجلتره فعلا .

وقد مكنه إلمامه غير العادى بالتجارة والمال من إصلاح خزانة أبهظها خوض حربين ضروسين فى جيل واحد إبهاظا خطرا . وكان بت قد قرأ آدم سمث ، ثم استمع إلى التجار ورجال الصناعة ، فخفض الرسوم على الواردات ، وعقد بعد المفاوضة مع فرنسا معاهدة تنص على خفض التعريفات الجمركية (١٧٨٦) ، وشرح صدر أقطاب الصناعة بتصريحه بأن الصناعيين ينبغى أن يكونوا عموما معفين من الضرائب ثم عوض عن هذا بفرض الضرائب على الاستهلاك على الأوشحة والشاش والقفازات والقبعات والشموع والأرائك والملح والنبيذ والآجر والقرميد والورق والشبابيك ، وقد لجأت بيوت كثيرة إلى تكسية بعض نوافذها بالخشب خفضا للضريبة[١٢٧]. فما وافى عام ١٧٨٨ حتى ووزنت الميزانية ، ونجت انجلتره من الإفلاس الحكومى الذى كان مفضيا بفرنسا إلى الثورة .

وكان بت قبل الانتخاب قد قدم للبرلمان « مشروع قانون الهند الأول » الذى هزم . فقدم الآن مشروعا ثانيا : خلاصته أن يدير مجلس إشراف يعينه الملك العلاقات السياسية لشركة الهند الشرقية ، أما العلاقات والرعاية التجارية فتترك فى أيدى الشركة خاضعة لحق النقض الملكى . وأقر البرلمان المشروع (٩ أغسطس ١٧٨٤) وظل يهيمن على الشئون البريطانية — الهندية حتى ١٨٥٨ .

أما فوكس وبيرك فقد رأيا فى هذا الترتيب استسلاما مخزيا لشركة اشتهرت بالفساد والإجرام . وكان لبيرك أسباب خاصة تدعوه للسخط . ذلك أن راعيه اللورد فرنى ، وأخاه رتشرد بيرك ، وقريبه وليم بيرك ،

كانوا من قبل مستثمرين فى شركة الهند الشرقية ، ثم نزلت بهم خسائر فادحة من جراء تقلبات أسهمها(١٢٨) . وحين ذهب وليم بيرك إلى الهند زكاه ادموند لدى السر فيليب فرانسس قائلا أنه يحبه حبا جما . فعين وليم صرافا للرواتب ، وتبين أنه « لا يقل فسادا عن غيره » (١٢٩) .

وحين عاد فرانسس إلى انجلتره أفضى إلى بيرك وفوكس برأيه فى إدارة هيستنجز ، وكان من المصادر الذى استقى منها بيرك معرفته غير العادية بالشئون الهندية . ولعل هجوم الهويجز اللبراليين على هيستنجز كان بعض مادفعهم إليه الرغبة فى تشويه سمعة وزارة بت والإطاحة بها (١٣٠) .

وفى يناير ١٧٨٥ استقال هيستنجز وعاد إلى انجلتره . وراوده الأمل فى أن تشفع له السنون الطويلة التى أنفقها فى الإدارة ، وإصلاحه مالية الشركة حتى استطاعت الوفاء بديونها ، وإنقاذه للقوة البريطانية فى مدراس وبومباى ، فى معاش يثاب به ، إن لم يكن فى لقب نبالة يشرف به . وفى ربيع ١٧٨٦ طلب بيرك إلى مجلس العموم تقديم السجلات الرسمية لحكم هيستنجز فى الهند . ورفض تقديم بعض هذه السجلات ، وأعطاه الوزراء بعضها الآخر . وفى ابريل طرح أمام المجلس بيانا بالتهم الموجهة إلى حاكم البنغال السابق ، وقرأ هيستنجز على المجلس ردا مفصلا . وفى يونيو قدم بيرك تهماً تتصل بحرب روهلخند ، وطلب توجيه الاتهام إلى هيستنجر ، ولكن مجلس العموم رفض تقديمه للمحاكمة . وفى ١٣ يونيو روى فوكس قصة شايت سنغ ، وطلب تقديم هيستنجز للمحاكمة . وفاجأ بت مجلس وزرائه بالإدلاء بصوته فى صف فوكس وبيرك ، وحذا حذوه كثيرون من الوزراء الأعضاء فى حزبه ، ولعله رسم هذه السياسة ليفصل الوزارة عن مصير هيستنجز . ووفق على اقتراح تقديمه للمحاكمة بأغلبية ١١٩ إلى ٧٩ . وقطع سير الدراما تأجيل البرلمان وحفظ القضايا الأخرى ، ولكنها استؤنفت باستحسان عظيم فى ٧ فبراير ١٧٨٧ ، يوم ألقى شريدان خطابا قال فوكس وبيرك وبت فيه أنه أفضل خطاب سمع فى مجلس العموم طوال تاريخه (١٣١) ، (عرض على شريدان ألف جنيه نظير نسخة مصححة من الخطاب ، ولكنه لم يجد قط وقتا للقيام بهذه المهمة ، ولا نعرف الخطاب الا من الخلاصات المخفضة)

وقد روى شريدان قصة سلب أميرتى أوده ونهبهما بكل ما أوتى من فن رجل ولد للمسرح ، وبكل ماتضطرم به نفس رومانسية من غيرة وحماسة ، وبعد أن استغرق فى خطابه أكثر من خمس ساعات ، طالب بتوجيه الاتهام الى هيستنجز . . وصوت بت ثانية فى صف المحاكمة ، ووفق على الاقتراح بأغلبية ١٧٥ الى ٦٨ . وفى ٨ فبراير عين المجلس لجنة من عشرين — على رأسهم بيرك وفوكس وشريدان — لإعداد بنود الاتهام . وقدمت البنود ، وفى ٩ مايو أمر المجلس « المستر بيرك ، باسم مجلس العموم . . أن يذهب إلى محكمة مجلس اللوردات ويوجه الاتهام للسيد وارين هيستنجز . . . بالجرائم والانحرافات الجسيمة » . وقبض على هيستنجز وجىء به أمام اللوردات ، ولكن أطلق سراحه بكفالة .

ثم بدأت محاكمته ، بعد أن تعطلت طويلا ، فى ١٣ فبراير ١٧٨٨ فى قاعة وستمنستر . وكل عشاق الأدب سيتذكرون وصف ماكولى الرائع (١٣٢) للحشد التاريخى : اللوردات جلوسا وهم فى فرائهم وذهبهم بوصفهم المحكمة العليا للمملكة ، وأمامهم هيستنجز شاحب اللون مريضا ، وقد بلغ عمره الثالثة والخمسين ، وطوله خمسة أقدام وست بوصات ، ووزنه ١٢٢ رطلا ، والقضاة تتوج هاماتهم بواريك تغطى آذانهم ، والأسرة المالكة ، وأعضاء مجلس العموم ، والشرفات غاصة بالسفراء والأميرات والدوقات ، ومسز سيدونز بجمالها المهيب ، والسر جوشوا رينولدز وسط العديد من وجوه القوم الذين صورهم ، وفى جانب جلست اللجنة التى سميت الآن « المديرين » تتأهب لتقديم حجج الاتهام . ثم قرأ الكنبة بيان التهم وجواب هيستنجز ، وراح بيرك فى أقوى خطاب ألقاه فى حياته ، على مدى أربعة أيام ، يصب فوق رأس المتهم سيلا متدفقا من الاتهامات . وأخيرا ، فى ١٥ فبراير ، دوى فى القاعة التاريخية صوته مجلجلا يطالب فى حماسة بالاتهام :

إنى أتهم السيد وارين هيستنجز بجرائم وانحرافات جسيمة ،
إنى أتهمه باسم نواب بريطانيا العظمى ... الذين خان ثقتهم البرلمانية ..

إنى أتهمه باسم شعب الهند ، الذى هدم قوانينه وحقوقه وحرياته ، ودمر ثرواته ، وأقفر وطنه وخربه .

إنى أتهمه باسم قوانين العـــدل الأزلية التى انتهكها ، وبمقتضى هذه القوانين . . .

إنى اتهمه باسم الطبيعة البشرية ذاتها ، والتى اعتدى عليها بقسوة ، وألحق بها الأذى وظلمها فى الجنسين جميعا ، وفى كل عمر للناس ، ومقام ، ومركز ، وحال من أحوال الحياة (١٣٣) .

ومضت المحاكمة تتخللها عشرات المقاطعات ، وبيرك ، وفوكس ، وشريدان ، وغيرهم يروون قصة ولاية هيستنجز . فلما شاع أن شريدان سيقدم الدليل فى قضية بيجومى أوده ، ظهر ٣ يونيو ، غصت الشوارع المؤدية إلى قاعة وستمنستر من الثامنة صباحا بالناس ، وفيهم كثير من علية القوم ، وكلهم تواق للعثور على وسيلة الدخول للقاعة . وباع البعض ممن حصلوا من قبل على تصريحات بالدخول تصريحاتهم بخمسين جنيها إنجليزيا (١,٥٠٠ دولار ؟) للتصريح . وفهم شريدان أن القوم يتوقعون منه أداء دراميا ، فأداه . وخطب فى أربع جلسات ، وفى آخر يوم (١٣ يونيو ١٧٨٨) ، بعد أن ظل يخطب خمس ساعات ، وقع إعياء بين ذراعى بيرك الذى عانقه . أما جبون الذى كان فى الشرفة فقد وصف شريدان بأنه « ممثل قدير » ولاحظ أن الخطيب كانت تبدو عليه امارات العافية حين ألم به المؤرخ صباح الغد (١٣٤) .

وكان ذاك الخطاب قمة المحاكمة . وكانت كل تهمـــة من قائمة التهم الطويلة تقتضى البحث والتحقيق ؛ ولم يتعجل اللوردات مهمتهم ، ولعلهم تباطأوا ليزيلوا الأثر الذى خلفته البلاغـــة ، ويدعوا الاهتمام بالقضية ينصرف إلى أحداث أخرى ، وجاءت الأحداث ، فقد جن الملك جورج فى أكتوبر ١٧٨٨ ، وجن على نحو خطير تماما ، إذ فدحه ضغط المحاكمة وسوء سلوك ولده . فقد كان جووج أوغسطس فردريك ، أمير ويلز ، فتى بدينا ، طيب القلب ، سمح النفس ، متلافا ، عاشقا للنساء ، وكان

قد احتفظ بسلسلة متصلة من الخليلات ، وتجمعت عليه ديون أداها أبوه أو الأمة . وفى ١٨٧٥ تزوج سراً بالسيدة ماريا آن فتز هربرت ، الكاثوليكية الرومانية التقية ، التى ترملت من قبل مرتين ، وكانت تكبر الأمير بست سنين . واقترح الأحرار بزعامة فوكس تأليف مجلس وصاية يرأسه الأمير ، الذى ظل ساهرا ليلتين فى انتظار اعلان بعدم أهلية الملك، ولكن جورج الثالث شوش الموقف بفترات من سلامة العقل قطعت حالة جنونه ، وكان خلالها يتحدث عن جاريك وجونسن ، ويغنى لقطات من هندل ، ويعزف على الناى . وفى مارس ١٧٨٩ شفى ، ونضا عنه سترتة الضيقة ، وأستأنف مراسم الحكم .

وجاءت الثورة الفرنسية بمنصرف آخر عن المحاكمة . فقد تخلى بيرك عن مطاردة هيستنجز وخف لنجدة مارى أنطوانيت . وأتى تطرف خطبه وغلوها على البقية الباقية من شعبيته ، وراح يشكو من تسلل أعضاء البرلمان إلى خارج القاعة متى بدأ الكلام . وكان أكثر الصحف يناوئه ، وقد اتهمها بأن ٢٠٠,٠٠٠ جنيه قد استخدمت فى شراء الصحفيين ليهاجموه ويدافعوا عن هيستنجز ؛ وما من شك فى أن شطرا كبيرا من ثروة هيستنجز قد أنفق فى هذا السبيل (١٣٥) ولابد أن بيرك لم يفاجأ حين برأ مجلس اللوردات ساحة هيستنجز (١٧٩٥) فى نهاية المطاف ، بعد مضى سنوات ثمان على الاتهام . وكان شعور الناس العام أن الحكم عادل : صحيح أن المتهم كان من نواحى كثيرة مذنبا ، ولكنه استنقذ الهند لانجلتره ، وعوقب بمحاكمة حطمت صحته وآماله ، وخلفته ملوث السمعة مفلسا . وعمر هيستنجز بعد موت جميع متهميه . وأنقذته شركة الهند الشرقية من الافلاس بالموافقة على اعطائه منحة قدرها ٩٠,٠٠٠ جنيه . فاسترد ضيعة أسرته الوراثية فى ديلز فورد ، وأصلحها ، وعاش فى بذخ شرقى. وفى ١٨١٣ طلب إليه الادلاء بشهادته عن شئون الهند أمام مجلس العموم، فقوبل فيه بالتصفيق والاجلال ، ونوه بخدماته ، وحييت أوزاره مع الزمن . وبعد أربع سنوات رحل عن هـذه الدنيا ، ولم يبق حيا من جيله الصاخب غير فرد واحد — هو الملك الأعمى المعتوه .

(قم ٧ — قصة الحضارة ، ج ٤٢)

٧ — انجلتره والثورة الفرنسية

بعد أن أوشك بيرك على استنفاد قوته فى الحرب ضد شركة الهند الشرقية ، ناصب الثورة الفرنسية العداء الشخصى ، وخلال هذه الحملة الجديدة شارك بقسط كبير فى الفلسفة السياسية .

وكان قد تنبأ بالثورة قبل نشوبها بعشرين عاما ؛ « بهذا الضيق والحيرة البالغين تنوء كل مالية فرنسا ، وتفوق نفقتها مواردها فى كل ناحية ، بحيث لم يعد مناص لكل إنسان . . . نظر فى شئونها بأقل اهتمام أو علم ، من أن يترقب فى كل لحظة حدوث اضطراب هائل فى النظام بأجمعه ليس من اليسير التكهن بآثاره على فرنسا بل على أوربا جميعها » (١٣٦) . وفى ١٧٧٣ زار فرنسا ، وفى فرساى رأى مارى أنطوانيت وكانت آنئذ زوجة لولى العهد ، ولم ينس قط رؤياه تلك للجمال الغض والسعادة النضرة والكبرياء الشابة . وقد خلص إلى رأى طبيب فى النبالة الفرنسية ، وأطيب منه فى الكهنوت الفرنسى . وصدمته دعوة جماعة الفلاسفة المناوئه للكثلكة ، بل المناوئة للدين فى حالات كثيرة ، وحين عاد إلى انجلتره حذر مواطنيه من الألحاد لأنه « أبشع وأقسى لطمة يمكن أن توجه إلى المجتمع المتمدن » (١٣٧) .

فلما أن اندلعت نيران الثورة أفزعه ذلك التهليل الذى لقيته من صديقه فوكس ، الذى هتف لسقوط الباستيل باعتباره « أعظم حدث وقع فى العالم و... أفضله (١٣٨) . وكانت الأفكار الراديكالية المنبعثة من الحملات التى شنها ولكس وجمعية مؤيدى ملتمس الحقوق قد انتشرت فى انجلتره ببطء . واقترح كاتب مغمور فى ١٧٦١ الشيوعية دواء لكل الأدواء الاجتماعية إلا تكاثر السكان الذى خشى أن يبطل كل الجهود المبذولة للتخفيف من الفقر . (١٣٩) وتكونت فى ١٧٨٨ جمعية لإحياء ذكرى ثورة ١٦٨٨ ، وضمت بين أعضائها نفرا بارزا من رجال الدين والنبلاء . فلما إلتأم شملها فى ٤ نوفمبر ١٧٨٩ ، بلغ انفعالها وتأثرها بواعظ موحد يدعى رتشرد برايس حداً جعلها تبعث

برسالة تهنئة للجمعية الوطنية فى باريس ، معربة عن الأمل فى أن « المثل العظيم الذى ضربته فرنسا » قد « يشجع أمما أخرى على توكيد الحقوق الثابتة لبنى الإنسان» (١٤٠) ووقع الرسالة ايرل ستانهوب الثالث ، رئيس الجمعية ونسيب وليم بت .

وأثارت العظة والرسالة مخاوف بيرك وغضبه. وكان ناهز الستين ووصل إلى حقه فى أن يكون محافظ النزعة . وكان رجلا متدينا يملك ضيعة كبيرة . لذلك لم ير فى الثورة الفرنسية « أدهش ثورة وقعت فى العالم إلى يومنا هذا » (١٤١) فحسب ، بل أعتى عدوان على الدين والملكية والنظام والقانون. وفى ٩ فبراير ١٧٩٠ أخبر مجلس العموم أنه لو حدث أن أى صديق له وافق على أى إجراءات من شأنها أن تدخل إلى انجلتره ديمقراطية كتلك التى تتشكل فى فرنسا ، لأنكر صداقته مهما طال رسوخها وعزت مكانتها . وهدأ فوكس الخطيب بإطرائه المشهور لبيرك كأفضل معلم له . وتأجلت القطيعة بينهما حينا .

وفى نوفمبر ١٧٩٠ نشر بيرك « تأملات فى الثورة فى فرنسا » على شكل رسالة (بلغ طولها ٣٦٥ صفحة) إلى « سيد فى باريس » وأصبح بيرك الان بطل انجلتره المحافظة ، وهو الذى كإن قد تزعم الأحرار خلال الثورة الأمريكية ؛ وأعرب جورج الثالث عن ابتهاجه بخصمه القديم . وغدا الكتاب إنجيل الملوك والأرستقراطيات فبعثت كاترين الكبرى ، التى كانت يوما ما صديقة جماعة الفلاسفة وحبيبتهم ، تهنئتها للرجل الذى كان قد نوى خلعهم عن عروشهم . (١٤٢)

وقد استهل بيرك كتابه بالإشارة إلى الدكتور برايس وجمعية إحياء ذكرى الثورة . ثم أسف أسفا شديدا على دخول رجال الدين حلبة المناقشات السياسية ، وقال إن مهمتهم إرشاد النفوس إلى المحبة المسيحية لا إلى الإصلاح السياسى . وأنه لا يثق بحق تصويت الذكور العام الذى يدافع عنه برايس ، فرأيه أن الأغلبية ستكون أشد طغيانا من الملوك ، وأن الديمقراطية ستنحط إلى حكم الغوغاء ، فالحكمة ليست فى الكثرة بل فى الخبرة . والطبيعة

لاتعرف شيئا عن المساواة ، وما المساواة السياسية إلا أكذوبة بشعة لا يسفر بثها الأفكار الكاذبة والتطلعات الباطلة فى رجال كتب عليهم السير فى المسالك المجهولة للحياة الشاقة إلا عن تفاقم عدم المساواة الحقيقى ، الذى لن تقوى إطلاقا على إزالته » (١٤٣) . والأرستقراطية لا محيص عنها ، وكلما أعرقت أجادت أداء وظيفتها ، وهى أن توطد فى صمت ذلك النظام الاجتماعى الذى بدونه يستحيل الإستقرار والأمان والحرية (١٤٤) . والملكية الوراثية نظام حسن لأنها تهب الحكومة وحدة واستمراراً بدونهما تتردى علاقات المواطنين القانونية والإجتماعية فى سيل محموم مضطرب . والدين حسن لأنه يعين على كبح تلك الدوافع غير الإجتماعية التى تستعر كأنها النار من تحت سطح الحضارة ، والتى لا سبيل إلى ضبطها إلا بالتعاون المتواصل بين الدولة والكنيسة ، وبين القانون والعقيدة ، وبين الخوف والإحترام ، وأولئك الفلاسفة الفرنسيون الذين قوضوا الإيمان الدينى بين صفوف شعبهم المتعلمة إنما يحلون حماقة تلك اللجم التى حالت بين الرجال وبين أن يصبحوا وحوشا .

وقد أسخط بيرك انتصار الغوغاء فى فرساى على « ملك معتدل شرعى » وعلى معاملته « بضراوة وعدوان وإهانة فاقت أى شىء » ثار به شعب على أشد المغتصبين خروجاً على القانون وأكثر الطغاة تعطشاً للدماء (١٤٥) . وهنا تقع الصفحة الشهيرة التى إنتشينا لها فى شبابنا :

» لقد مضت الآن ستة أو سبعة عشر عاماً منذ رأيت ملكة فرنسا فى فرساى وكانت يومها زوجة ولى العهد ، والحق أنه ما من منظر أبهج من هذا حط على هذا الكوكب الذى بدت وكأنها لا تمسه إلا مساً رفيقاً . لقد رأيتها فوق الأفق بقليل ، تجمل وتبهج الدائرة الراقية التى همت بالتحرك فيها — ساطعة كنجمة الصبح ، فياضة بالحياة ، والبهاء ، والفرح . أية ثورة تلك ! وأى قلب يجب أن تضمه جوانحى حتى أتأمل دون إنفعال ذلك السمو وذلك السقوط ! (*) لم يخطر ببالى يوم كانت تجمع بين ألقاب التبجيل وألقاب

(*) يعنى إكراه الغوغاء فى فرساى لويس السادس عشر ومارى أنطوانيت على العودة معهم إلى باريس والسكنى فى قصر التويلرى تحت رقابة الشعب (٥ — ٦ أكتوبر ١٧٨٩).

الحب المتحمس ، البعيد ، المشرب بالإحترام ، أنها ستضطر يوماً ما إلى حمل ذلك الترياق القاطع ضد الخزى ، المخفى فى ذلك الصدر ، ولا خطر ببالى أننى سأعيش لأرى خطوباً كهذه نصيبها فى أمة من الرجال البواسل ، أمة من رجال كلهم شرف وكلهم شهامة . كنت أظن أن عشرة آلاف سيف لابد قافزة من أغمادها لتثأر حتى لنظرة واحدة تهددها بالإهانة . ولكن عصر الفروسية ولى ، وخلفه عصر السوفسطائيين والإقتصاديين والحسابين ، وانطفأ مجد أوربا إلى الأبد » (١٤٦) .

وضحك السر فيليب فرانسس على هذا كله وقال إنه هراء رومانسى ، وأكد لبيرك أن ملكة فرنسا إمرأة فاجرة لعوب (١٤٧). وكذلك رآها كثير من الإنجليز الوطنيين ، على أن هوراس ولبول أكد أن ببرك صور مارى أنطوانيت « بالخيط كما بدت لى أول مرة رأيتها وهى ولية للعهد » (١٤٨).

فلما واصلت الثورة مسيرها واصل بيرك هجومه فنشر «رسالة لعضو فى الجمعية الوطنية » (يناير ١٧٩١) اقترح فيها أن تتحد حكومات أوربا لكبح جماح الثورة ورد ملك فرنسا إلى سلطته التقليدية . وروع الاقتراح فوكس ، وفى ٦ مايو ، فى مجلس العموم ، انتهى الصديقان اللذان حاربا كتفا إلى كتف فى حملات كثيرة جدا بتفرق طريقهما تفرقا دراميا . فقد كرر فوكس ثناءه على الثورة . ولكن بيرك قام محتجا وقال « ليس من الحكمة فى أى وقت ، خصوصا فى سنى هذه ، أن أستفز الأعداء ، أو أعطى فرصة لأصدقائى ليتخلوا عنى ، ولكن إذا كان ولائى القوى الثابت للدستور البريطانى يضحى فى هذه الورطة فإنى على استداد لركوب هذه المغامرة . » فأكد له فوكس أن الخلافات فى الرأى بينهما لا تنطوى على فصم لأواصر الصداقة . وأجاب بيرك « كلا كلا ، إن فيها فقدا للأصدقاء . إنى أعرف ثمن سلوكى . . لقد انتهت صداقتنا. »(١٤٩) ولم يعد بعدها للكلام مع فوكس إلا رسميا فيما أكرها عليه من اتحاد الموقف فى محاكمة هيستنجز .

وقد قدم بيرك فى كتاباته عن الثورة الفرنسية تعبيراً كلاسيكياً لفلسفة محافظة . وأول مبادئها عدم الثقة بمنطق فرد أيا كان ذكاؤه إذا تعارض

مع تقاليد النوع الإنسانى . فكما أن الطفل لا يستطيع فهم أسباب المحاذير والنواهى الأبوية ، فكذلك لا يستطيع الفرد ، وما هو إلا طفل بالقياس إلى النوع ، أن يفهم دائماً أسباب العادات والأعراف والقوانين التى تجسد تجربة أجيال كثيرة . والحضارة تستحيل « إذا إرتكزت ممارسة جميع الواجبات الأخلاقية ، وأسس المجتمع ، على جعل أسبابها ومبرراتها واضحة ثابتة بالبرهان لكل فرد » . (١٥٠) لا بل حتى « الأحكام المسبقة » لها فائدتها ، فهى تحكم سلفاً على المشكلات الحاضرة على أساس الخبرة الماضية .

فالعنصر الثانى من عناصر المحافظة إذن هو « حق التقادم » : فالتقليد أو المؤسسة يجب إحترامها إحتراماً مضاعفاً وعدم تغييرها إلا نادراً إذا كانت مكتوبة فعلا أو مجسمة فى نظام المجتمع أو هيكل الحكومة . والملكية الفردية مثال على حق التقادم وعدم معقولية الحكمة فى الظاهر . فإنه ليبدو من غير المعقول أن تملك أسرة واحدة ثروة كبيرة وأخرى ثروة ضئيلة ، وأمعن فى اللامعقولية أن يسمح للمالك بتوريث ثروته لخالقه الذين لم يحركوا أصبعاً فى كسبها ، ومع ذلك تبين بالتجربة أن الناس بوجه عام لن ينهضوا للعمل والدرس ، ولا للتحضير الشاق المكلف ، ما لم يصفوا ثمرات جهودهم بأنها ملكهم الخاص ، لهم أن ينقلوها لغيرهم ، إلى حد كبير ، كما يشاءون . وقد أثبتت التجربة أن تملك الثروة أفضل ضمان يكفل حكمة التشريع واستمرار الدولة .

فليست الدولة مجرد تجمع أشخاص فى مكان ما فى لحظة ما ، إنما هى تجمع أفراد على مدى الزمن المستطيل « إن المجتمع هو حقاً تعاقد ... شركة لا بين الأحياء فحسب ، بل بين الأحياء ، والأموات ، والذين سيولدون »(١٥١) ، وذلك الإستمرار هو وطننا . فى هذا الكل الثلاثى قد تكون الأغلبية الراهنة أقلية بمضى الزمن ، ويجب على المشرع أن يراعى حقوق الماضى (خلال « حق التقادم ») وحقوق المستقبل ، رعايته لحقوق الحاضر الحى . والسياسة هى ، أو ينبغى أن تكون ، فن المواءمة بين أهداف الأقليات المتضاربة وصالح الجماعة المستمرة . يضاف إلى هذا أنه ليس هناك حقوق مطلقة ، فما هذه إلا تجريدات ميتافيزيقية لا تعرفها الطبيعة ، وليس هناك إلا الرغبات ، والقوى ، والظروف ، و « الظروف تضفى على كل مبدأ سياسى لونه المميز

وأثره الفارق » [١٥٢] والمصلحة أهم أحياناً من الحقوق « ينبغى أن تكيف السياسة لا وفق الحجج البشرية [المجردة] بل وفق الطبيعة البشرية ، التى ليس العقل فيها إلا جزءاً وليس أكبر جزء على الإطلاق [١٥٣] . « يجب أن ننتفع بما يوجد من مواد [١٥٤] » .

هذه الإعتبارات كلها يوضحها الدين . قد لا تكون عقائد دين من الأديان وأساطيره ومراسمه متفقة مع عقلنا الفردى الحاضر ، ولكن هذا ليس بذى بال إذا إتفقت وحاجات المجتمع الماضية والحاضرة والمستقبلة . والتجربة قاطعة فى أن عواطف الناس المشبوبة لا يمكن السيطرة عليها إلا بتعاليم الدين وشعائره « إذا نحن كشفنا عرياً [أطلقنا غرائزنا] بنبذ ذلك الدين المسيحى الذى كان ... مصدراً عظيما للمدنية بيننا .. فإننا نخشى (ليقيننا بان الفكر لا يطيق فراغاً) أن تحل محله خرافة خرقاء ، مؤذية ، محطة [١٥٥] » .

ورفض كثير من الإنجليز نزعة بيرك المحافظة باعتبارها تمجيداً للركود [١٥٦] ، ورد عليه توماس بين بقوة فى كتابه « حقوق الإنسان (١٧٩١ — ٩٢) . ولكن إنجلتره التى عاصرت شيخوخة بيرك رحبت عموماً بعبادته للسلف . فلما مضت الثورة الفرنسية فى طريقها قدماً إلى مذابح سبتمبر ، وإعدام الملكة والملك ، وحكم الإرهاب ، شعرت الكثرة العظمى من البريطانيين بأن بيرك أحسن التنبؤ بعواقب التمرد والكفر ، وتشبثت إنجلتره قرناً كاملا بدستورها ، دستور الملك ، والأرستقراطية ، والكنيسة الرسمية ، وبرلمان يفكر بلغة السلطات الإمبراطورية لا الحقوق الشعبية رغم أنها تخلصت من دوائرها الإنتخابية ، العفنة ووسعت حق التصويت . وبعد الثورة عادت فرنسا من روسو إلى مونتسكيو ، وصاغ جوزف دميستر آراء بيرك للفرنسيين التائبين صياغة جديدة .

وواصل بيرك إلى النهاية حملته من أجل حرب مقدسة . واغتبط حين أعلنت فرنسا الحرب على بريطانيا العظمى (١٧٩٣) . وأراد جورج الثالث أن يثيب عدوه القديم على خدماته الأخيرة فيرفعه إلى مقام النبالة ويخلع

عليه لقب اللورد بكنزفيلد الذى شرفه دزرايلى فيما بعد ، فرفض بيرك ، ولكنه قبل معاشاً قدره ٢,٥٠٠ جنيه (١٧٩٤) . فلما بدأ الحديث يتردد عن اجراء مفاوضات مع فرنسا ، أصدر « أربع رسائل عن سلام مع قتلة الملوك » (١٧٩٧ وما بعدها) ، طالب فيها بحرارة أن تستمر الحرب . ولم يطفىء لهيب ناره غير الموت (٨ يوليو ١٧٩٧) . واقترح فوكس أن يدفن فى كنيسة وستمنستر ، ولكن بيرك كان قد ترك تعليمات بأن يشيع فى جنازة غير رسمية ويدفن فى كنيسة بكنزفيلد الصغيرة . وقد ذهب ماكولى إلى أنه أعظم انجليزى منذ ملتن — وهو رأى ربما تجاهل شاتام ؛ أما اللورد مورلى فقد وصفه فى حذر أكثر ، بأنه «أعظم أساتذة الحكمة المهذبة فى لغتنا» ، (١٥٧) وهو رأى لعله تجاهل لوك . على أية حال كان بيرك تجسيداً لما تاق إليه المحافظون عبثاً طوال عصر العقل — رجلا استطاع الدفاع عن العرف بالبراعة التى دافع بها فولتير من قبل عن العقل .

٨ — الأبطال يتقاعدون

حين تقدمت الثورة الفرنسية وجد تشارلز جيمس فوكس نفسه واحداً من أقلية متضائلة فى البرلمان وفى الوطن . وانحاز كثيرون من حلفائه إلى الرأى القائل بوجوب انضمام انجلتره إلى بروسيا والنمسا فى مقاتلة فرنسا ، وبعد إعدام لويس السادس عشر وجد فوكس نفسه وقد انقلب على الثورة ، ولكنه ظل على معارضته الدخول فى الحرب . فلما اندلعت الحرب رغم ذلك عزى نفسه بالشراب ، وبقراءة الآداب القديمة ، وبالزواج (١٧٩٥) من السيدة اليزابث أرمستد ، خليلته السابقة (وخلياة اللورد كافندش ، واللورد داربى ، واللورد كوملوندلى) ، التى أدت عنه ديونه (١٥٨) . وقد رحب بصلح أميان (١٨٠٢) ، وقام برحلة فى فرنسا ، فاستقبل هناك بأسباب التكريم الحكومية والشعبية ، واستقبله نابليون مواطناً للحضارة ، وفى ١٨٠٦ تلقد وزارة الخارجية فى « وزارة جميع المواهب » ، وقد جاهد ليحتفظ بالسلام مع فرنسا ، وأيد تأييداً قاطعاً حملة وليرفورس على تجارة الرقيق . وحين تناهى إليه نبأ مؤامرة دبرت لاغتيال نابليون أرسل إلى

الامبراطور تحذيراً بطريق تاليران ، ولعل فوكس كان واجداً سبيلا للتوفيق بين طمع يونابرت وأمن انجلتره لولا انهيار صحته . ولكن فى يوليو ١٨٠٦ أعجزه داء الاستسقاء ، وأخفقت سلسلة من الجراحات المؤلمة فى وقف سير المرض ، فتصالح مع الكنيسة الرسمية ، وفى ١٣ سبتمبر مات مبكياً عليه من أصدقائه وأعدائه ، وحتى من الملك . لقد كان أوفر رجال جيله حظاً من المحبين .

وسبقه إلى أقباء كنيسة وستمنستر بت الإبن الذى شاخ قبل أوانه . فقد وجد هو أيضاً أنه لن يستطيع احتمال خطو الحياة السياسية السريع إلا بنشوة السكر تنسيه همومه من حين إلى حين . وكانت سلامة عقل جورج الثالث القلقة مشكلة دائمة ، فكل صراع خطير فى وجهات النظر بين الملك ووزيره قد يخل باتزان الرأس المتوج بأمير ويلز وصياً ، يطرد بت ويستدعى فوكس ليحل محله . وعليه فقد تخلى بت عن خطته فى الإصلاح السياسى ، وسحب معارضته لتجارة الرقيق ، حين وجد أن فى هاتين المستألتين ، كما فى كثير غيرهما من المسائل ، كان جورج مصمماً بروح المشاكسة على تخليد الماضى . وركز بت عبقريته على التشريع الاقتصادى ، الذى خدم فيه الطبقة الوسطى الصاعدة . ثم قاد انجلتره على كره شديد — فى حرب ضد من سماهم « أمة من الملحدين »[١٥٩] ولم يحسن البلاء وزيراً للحرب . فحين خشى أن يغزو الفرنسيون أرلنده ، حاول تهدئة الأرلنديين ببرنامج من الوحدة البرلمانية والتحرير الكاثوليكى ، ولكن الملك تصلب ، واستقال بت (١٨٠١) . ثم عاد (١٨٠٤) ليرأس وزارته الثانية . ولم يكن كفؤاً لمقارعة نابليون ، فلما جاء نبأ نصر الفرنسيين فى أوسترلتز (٢ ديسمبر ١٨٠٥) ذلك النصر الذى جعل نابليون سيد القارة ، انهار بت جسداً وروحاً . وحين وقع بصره على خريطة كبيرة لأوربا قال لصديق له « اطو هذه الخريطة ، فلن يكون هنالك حاجة إليها هذه السنين العشر »[١٦٠] . ومات فى ٢٣ يناير ١٨٠٦ ، فقيراً فقراً مشرفاً ، غير متجاوز السادسة والأربعين .

ثم اقتضت الحياة وقتاً أطول لتقضى على شريدان . وكان قد انضم إلى بيرك وفوكس فى الدفاع عن أمريكا وفى خوض معركة ميستنجز ، وأيد فوكس فى التصفيق للثورة الفرنسية . غير أن الزوجة التى كان سحرها ودماثة

طبعها حديثاً محبباً بين أصدقائه ، والتى جعلت من جمالها منبر خطابة لتعيينه على الظفر بكرسى فى البرلمان ، هذه الزوجة ماتت بالسل وهى فى الثامنة والثلاثين من عمرها (١٧٩٢) . فانهار شريدان . وقال أحد معارفه عنه « رأيته الليلة بعد الليلة يبكى كأنه طفل »[١٦١] وقد وجد بعض العزاء فى الفتاة التى أنجبتها له ، ولكنها ماتت فى السنة ذاتها . وفى شهور الحزن تلك واجه مهمة إعادة بناء مسرح دروري لين الذى لم يعد مأموناً لقدمه وتداعى مبانيه . ولكى يمول هذه العملية تحمل نفقات باهظة . وكان قد عود نفسه العيش المترف ؛ الذى عجز دخله عن الإنفاق عليه . لذلك استدان ليواصل أسلوب حياته . وحين كان دائنوه يحضرون إليه ليطالبوه بديونهم كان يحتفى بهم كأنهم اللوردات ، ويقدم إليهم الشراب والتحية المهذبة والنكتة الذكية ثم يصرفهم فى حال من الرضى يكاد ينسى الدائن دينه . وقد ظل نشيطاً فى البرلمان حتى ١٨١٢ حين أخفق فى إعادة انتخابه . وكان من قبل يتمتع بالحصانة من الاعتقال بصفته عضواً فى مجلس العموم . أما الآن فقد أطبق عليه دائنوه ، واستولوا على كتبه ، وصوره ، ومجوهراته . وأخيراً أوشكوا على حمله إلى السجن لولا أن طبيبه حذرهم من أن شريدان قد يموت فى الطريق . ثم قضى نحبه فى ٧ يوليو ١٨٠٦ وهو فى الخامسة والستين . وقد عاوده الغنى فى مأتمه . لأن سبعة لوردات وأسقفا شيعوه إلى مقبرة وستمنستر .

أما الملك نصف المجنون فقد عمر بعدهم أجمعين ، بل عمر حتى رأى انتصار انجلتره فى واترلو وإن لم يعلم به . وقد أدرك بحلول عام ١٧٨٣ أنه أخفق فى محاولته جعل الوزراء مسئولين أمامه لا أمام البرلمان . وأضنته صراعاته الطويلة التى لم يكن كفؤ لها مع مجلس العموم ، وأمريكا ، وفرنسا . وفى ١٨٠١ و ١٨٠٤ و ١٨١٠ انتكس إلى جنونه ، وظفر فى النهاية بتلك الشعبية التى حرمها أيام كفاحه ، مشوبة بالشفقة على رجل رأى انجلتره تصاب بالهزائم الكثيرة ولم يتح له أن يشهد انتصارها . وكان فى موت ابنته أميليا (١٨١٠) الأثيرة لديه ما أكمل القطيعة بينه وبين دنيا الواقع . وفى ١٨١١ كف بصره وبات مجنوناً جنوناً لاشفاء منه ، وظل معزولا تفرض عليه الحراسة حتى مات (٢٩ يناير ١٨٢٠) .